المؤلفات الكاملة

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

العروج إلى اللامتناهي

إعداد: محمد رضا غياثي كرماني
ترجمة: عباس نور الدين

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

مكتبة
مؤمن قريش

العروج إلى اللامتناهي

العروج إلى اللامتناهي

آية الله محمد تقي مصباح اليزدي

إعداد:
السيد محمد رضا غياثي كرماني

ترجمة:
السيد عباس نور الدين

© جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-090-6

[٢٠١٧م - ١٤٣٨هـ]

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - email: almaaref@shurouk.org

تصميم:
زينب ن ترمس

إخراج فني
إبراهيم شحوري

طباعة
DB UK 00961 3 336218
شركة دبوق العالمية للطباعة والتجارة العامة ش.م.م.
info@dboukart.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الآراء والاتجاهات والتيارات الوارد الحديث عنها في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن توجهات **دار المعارف الحكمية** وإن كانت تقع في سياق اهتماماته المعرفية

الفهرس

مقدمة الناشر ٩

المقدمة ١٣

الفصل الأوّل: ضرورة التوجّه القلبي إلى اللّه في الصلاة وكيفيّته ١٩

أهميّة تحصيل التوجّه القلبيّ إلى اللّه في الصلاة ٢١

طرق تحصيل التوجّه القلبيّ إلى اللّه في الصلاة ٢٢

الفصل الثاني: وسائل تحصيل الإخلاص وقصد القربى في الصلاة ٢٩

موقعيّة الإخلاص في الصلاة ٣١

كلام المرحوم المجلسي بشأن قصد القربى في الصلاة ٣٢

الرياء مفسدٌ للصلاة ٣٣

علامات الإخلاص والرّياء ٣٩

الفصل الثالث: في البحث عن روح الصلاة ٤٥

الصلاة الحقيقيّة ٤٧

ثلاث خطوات لأجل الوصول إلى روح الصلاة وحقيقتها ٤٩

طرق تحقيق حضور القلب في الصلاة ٥٦

تحصيل حالة الخشوع في الصلاة ٦١

عوامل نشوء الخشوع في الصلاة ٧٧

مراتب الخوف من اللّه ٨٧

الفصل الرابع على عتبة المعشوق ٩٥

دور «النيّة» في ارتقاء الإنسان وسقوطه ٩٧

النيّة ومراتبها ٩٩

أنواع النيّة ١٠١
مراتب النيّة العالية ١٠٨
نظرة إلى آذان الصلاة ١١١
بعض الأسئلة المهمّة ١١٩

الفصل الخامس الصلاة المقبولة وآثارها ١٣١
شرائط قبول الصلاة ١٣٣
آثار الصلاة المقبولة ١٣٦
سؤال في النهاية ١٣٨

مقدمة الناشر

يقول اللّه تبارك وتعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[1]. وكما ترى، فبعد أن ذكرت الآية الكريمة أصلًا أساسيًّا من أصول الدين وهو التوحيد، توجّهت إلى العبادة، هذا اللقاء الاستثنائي بين العبد وربّه، وكأنّ التوحيد والصلاة يأنسان ببعضهما، ولا يفترقان، أحدهما يتوجه باتجاه معرفة اللّه والثاني يقرّ ويعترف بهذه الحقيقة، ويبدي من خلال العمل الإقرار بهذا الفضل، وهذا ما أظهره الإسلام من خلال تشريعه وجوب الصلاة التي تتجلى أهميتها باعتبارها لقاء الحبّ والشوق والعشق وصلة الوصل بين المتناهي واللامتناهي، بين المحدود والمطلق.

فمن خلال الصلاة، يصل العابد إلى العبوديّة المطلقة التي يذوب فيها في جمال وجلال محبوبه الحقيقيّ وهو اللّه تعالى. لذلك، هذه العبادة هي الباب الكبير الذي من خلاله يدخل الإنسان إلى ساحة الحقّ بالرغم من ذنوبه وآفاته، فهو كلّما دخل إلى هذه الساحة وجد اللّه تعالى مقبلًا عليه مرحّبًا بقدومه وبتوبته وعودته.

ولما كان للصلاة هذه الأهميّة في أدبياتنا الدينية وعلاقتنا مع بارئنا، بحيث لا يمكن من دونها الجواز إلى ساحة المطلق، وجد دار المعارف من الأهمية بمكان أن ينشر هذا النوع من الكتب لما لها من دور في إعانة القارئ والسالك على الولوج إلى ساحة الفيض الإلهيّ وتخلية قلبه ونفسه لوفود الفيوضات والكمالات.

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٤.

فاختار كتابًا لسماحة آية اللّه الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي بعنوان **العروج إلى اللامتناهي**، آملًا أن يكون هذا الكتاب رافدًا من روافد تمتين الصلة بين الإنسان وربه.

ينقسم الكتاب إلى خمسة فصول. يظهر الفصل الأول «ضرورة التوجه القلبي إلى اللّه في الصلاة وكيفيّته»، ويشرح أهمية تحصيل التوجّه القلبي وكيفيته، من خلال أربع طرق وهي: التوجه إلى عظمة اللّه المطلقة، ولطفه تعالى، وعظمة استقباله سبحانه لعبده، كذلك التوسّل بأهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ.

وفي الفصل الثاني، ينتقل الكتاب للحديث عن «وسائل تحصيل الإخلاص وقصد القربى في الصلاة»، وفيه يتحدّث الشيخ اليزدي عن موقعيّة الإخلاص في الصلاة باعتبارها طاعة للّه وامتثالًا لأوامره وأنّ الرياء مفسدّ لها، ويشير بذلك إلى أنّ في الرياء ما هو خفيّ يدبّ دبيب النمل على صخرة صماء في ليلة ظلماء وينبغي للإنسان التنبّه منه.

أمّا الفصل الثالث، فخصص للبحث «في البحث عن روح الصلاة»، وأشار من خلاله سماحته إلى أنّ الصلاة الحقيقيّة معراج المؤمن، وطرح ثلاث خطوات لأجل الوصول إلى روح الصلاة وحقيقتها. وأضاف في الفصل ذاته طرقًا لتحقيق حضور القلب، وكيفية تحصيل حالة الخشوع في الصلاة وعوامل نشوئه، وتحدث عن الخشوع الذي هو نفي الإنيّة والأنانيّة، وهو يختلف عن الخوف والخشية لأنّه شعور خاص بالانكسار والتفتّت والمذلّة التي تحصل للإنسان مقابل العزّة الإلهيّة، والتي تؤدّي في نهاية الأمر للوصول إلى محبّة اللّه ورسوخها في القلب عبر ملاحظة عظمة النعم الماديّة والمعنويّة.

«على عتبة المعشوق» عنوان الفصل الرابع الذي يفصّل في دور النيّة في ارتقاء الإنسان وسقوطه وفي أنواع النيّة ويقترح خطوات عملية نحو تصحيح النوايا وأنّ أعلى مراتب النيّة العالية أن يعبد الإنسان ربّه غير طامعٍ بجنّة ولا خائفٍ من جهنّم. كما أنّه تعرّض لنظرة عامّة إلى آذان الصلاة ومعاني الأذكار الواردة فيه.

وفي الفصل الخامس «الصلاة المقبولة وآثارها»، يذكر العلّامة شرائط قبول الصلاة وآثارها على الفرد العبد في الدنيا والآخرة.

والكتاب بما يحمله من عنوان يدلّ على مضمونه، فالصلاة هي بمثابة السلّم الذي يتدرّج فيها العبد المتناهي ليصل إلى ساحة المقدّس المحبوب اللامتناهي، نأمل أن يؤدي ما كُتب من أجله، فيعين السالك إلى اللّه تعالى ويجعلنا وإياكم من المصلين.

واللّه من وراء المقصد

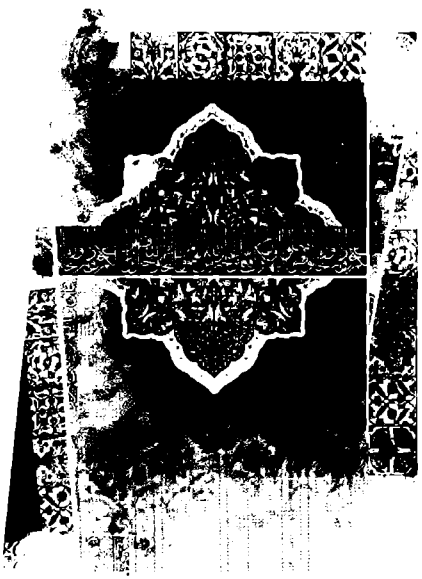

المقدمة

وُصف المؤمن أنّه كالجبل الراسخ الذي لا تزلزله عواصف الأحداث والمصائب. ولا شكّ بأنّ ارتباطه بمبدأ الوجود ومركز القدرة اللامتناهية ومنبع العزّة الأبديّة هو الذي يمنحه مثل هذه الصلابة والثبات العجيب.

أولئك الذين ربطوا زورق القلب بحبل اللّه المحكم وسط بحر الحوادث المتلاطم، لا يمكن لأمواجه العاتية أن تتقاذفهم أو تزلزلهم أو تصيبهم بأذى.

أجل، إنّهم أولئك الذين أنِسوا بذكر اللّه، من ينالون مثل تلك الطمأنينة والهدوء والسكينة.

ولا شكّ بأنّ أعظم مصاديق ذكر اللّه هو الصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]، حيث ترفع الستار عن هذا السرّ وتدعو البشر إلى رحابها المليئة بالسكينة، وسط هذه الحياة المليئة بالضجيج والصخب، وخصوصًا في عصر التنافس في ميادين التقنيّة والصناعة، وتعزف لحن ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[2] على مسامع أرواحهم.

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٤.

(٢) سورة **الرعد**، الآية ٢٨.

عدّة نقاط في باب الصلاة

وهنا، نشير إلى بعض النقاط في باب الصلاة:

إنّ حقيقة الصلاة عبارة عن الاتّصال بين اللّه وعبده، ومن دون الطهارة، لا يكون الإنسان لائقًا للحضور في محضره، لهذا يجب عليه أن يتوضّأ ويقف للصلاة ببدنٍ طاهر.

يقول أهل المراقبة: يجب أن يتمّ الوضوء بتأنٍّ وخضوع وبالتوجّه إلى أسراره، لأنّ حضور القلب في الصلاة يتحقّق بمقدار حضور الإنسان في الوضوء.

يجب تفريغ القلب من كل ما هو دنيويٌّ وموجبٌ لتشتت الخيال قبل البدء بالصلاة، لكي يدرك المصلّي ما يقول فيها وما يقرأ ولا يكون في سكر الغفلة فيشمله قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[1]، ومن هنا قيل: «إذا حَضَرَ الْعِشاءُ وَالْعَشاءُ فَقَدِّمُوا الْعَشاءَ».

يجب القيام بالمستحبّات قبل الصلاة، فتزول كدورات القلب ببركة نورها، بل يحصل باطن المصلّي على لياقة المناجاة وتهبّ عليه نفحات القدس الإلهيّ وتتنزّل عليه بركاته اللامتناهية.

من الجدير أن يصلّي الإنسان صلاة الجماعة لأنّ أرواح المؤمنين باجتماعها تتّحد، إذا كان أحد المصلّين غافلًا والآخرون في حالة الحضور يمكن أن يجبروا غفلته ويكمّلوا نقص صلاته.

من شدّة رحمته وشفقته على أمّته، أراد النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ لها أن تحوز على مقاماته وأحواله التي حصل عليها في ليلة المعراج، ولهذا حين خطا على بساط القرب الإلهيّ، سأل اللّه تعالى أن يجعل هذه الكرامة هدّية لأمّته. فاصطحب معه هذه الصلاة التي هي صورة حاله، ليقيمها في أمّته عند رجوعه من سفر المعراج، من هنا كانت الصلاة «معراج المؤمن».

إنّ الصلاة حرمٌ عظيمٌ من حرم اللّه، حيث إنّ باب الدخول إليه بتكبيرة الإحرام،

---

(١) سورة النساء، الآية ٤٣.

وباب الخروج منه بالسلام فيه عدّة مواقف كلّ واحدٍ منها هو تجلٍّ من التجلّيات الإلهيّة وضيافة من ضيافات الرحمن.

من المؤسف أن يدخل الإنسان إلى هذا الحرم ويخرج منه غافلًا من دون أن يكون له مشاهدة أو مكالمة أو استفادة من تلك المائدة.

تتضمّن الصلاة في ظاهرها سرّ عبادة كلّ الملائكة، لأنّ من الملائكة من يكون دومًا في حال ركوع، ومنهم من هو دومًا في حال سجود، ومنهم من هو في حال القيام، ومنهم من هو في حال الجلوس، ومنهم من هو في حال الاستغفار، ومنهم من هو حال في التلاوة، ومنهم من هو في حال التسبيح ومنهم في التحميد ومنهم في الصلاة على النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. لهذا، يكون المصلي في كلّ واحدة من هذه الأجزاء في سلك واحدٍ من الملائكة.

حول هذا الكتاب

لا شكّ بأنّ أجمل وأعلى كلام حول الصلاة هو ما ورد حول نبيّ الرحمة وأهل بيت العصمة صلوات اللّه عليهم. وقد قام ورثتهم بشرب جرعة من كوثر معرفتهم فحملوا معهم تلك الاستفادات الجميلة والمفعمة بالمعاني ليرووا عُطاشى الحقيقة.

وأحد هؤلاء هو الأستاذ العالي المقام حضرة آية اللّه محمد تقي المصباح اليزدي، هذا المقاوم المتين في الفكر والثقافة والمعرفة والإيمان، الذي أصبح مصداقًا لقوله «من أخلص للّه أربعين صباحًا»، فجرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه إلى التائقين والمشتاقين. فقد ترك لنا عشرات الآثار الخالدة لتكون مصداق قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[1].

وهذا الأثر، الذي يدور حول الصلاة، هو أحد الكتب التي استُخلصت من مجموع كلماته وكتاباته؛ وأملنا أن يتقبّله الحقّ تعالى، ويكون ذخرًا لـ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[2].

---

(١) سورة **الإنسان**، الآية ٦.

(٢) سورة **الشعراء**، الآية ٨٨.

وعلى أمل تعجيل الفرج لظهور مهديّ الأمّة ومنجي العالم أرواحنا فداه، وسلامة وطول عمر قائد الجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة، حضرة آية اللّه الخامنئي دامت بركاته.

السيد محمد رضا غياثي كرماني

الفصل الأوّل

ضرورة التوجّه القلبي إلى الله في الصلاة وكيفيته

أهميّة تحصيل التوجّه القلبيّ إلى اللّه في الصلاة

قبل البدء بالصلاة، من المناسب أن يصرف الإنسان ذهنه وفكره لعدّة لحظات عن الشؤون الماديّة وعن كلّ ما يؤدّي إلى تشتّت الحواس، ومن ثمّ يقوم بتركيز توجّهه في الصلاة إلى اللّه تعالى. فإذا أراد أن يـؤدّي الصلاة فُـرادى، فليسعَ لاختيار مكانٍ بعيدٍ عن الضجيج والمشاهد والأشياء التي تشغل بصره؛ وإذا أراد أن يشارك في صلاة الجماعة فليسعَ للتواجد بين جماعة المصلّين بحيث لا يكون هناك ما يجذبه إليه أو يؤثّر على ارتباطه باللّه، فيكون في هذه الحالة وكأنّه قد ذاب وانصهر في الجماعة.

إنّ الأذكار التي تُقرأ في الصّلاة تتضمّن مفاهيم عديدة ينبغي لها أن تنعكس في الذهن، إلّا أنّ التوجّه القلبيّ ليس من مقولة الألفاظ والمفاهيم، بل هو من مقولة العلم الحضوريّ والشهوديّ، ويحصل بفضل عناية اللّه للذين أدركوا حضور ربّهم.

ففي ظلّ القدرة والاستعداد اللذين يمنحهما اللّه للإنسان، يتمكّن الإنسان من التوجّه إلى ربّه من أعماق قلبه، أثناء تلاوة هذه الأذكار الصلاتية وتصوّر معانيها. ورغم أنّنا في معظم الأحيان لا نمتلك الاستعداد اللازم للتوجّه القلبيّ إلى اللّه، لكنّنا بالاستمداد منه والاستعانة به والتوجّه إلى المفاهيم المتضمّنة في أذكار الصلاة والتركيز عليها نستطيع إيجاد هذه الحالة المعنوية في أنفسنا أو تقويتها. وحيث إنّ هذا التوجّه القلبيّ يحصل بصورةٍ محدودة وفي حالاتٍ خاصّة لمعظم النّاس، فمن المهم العمل على زيادة هذا التوجّه وتقويته وتعميقه.

تحصل لأكثر النّاس، أثناء التوسّل والمناجاة، وبصورة محدودة، تلك الحالة التي يتوجّهون فيها من وراء المفاهيم والألفاظ توجّهًا كاملًا إلى مخاطَبهم وكأنّهم يرونه، فيغفلون تمامًا عن كل ما يحيط بهم حتى إنّهم ينسون أنفسهم. فلو حصلت لنا مثل هذه الحالة من التوجّه إلى اللّه، يجب أن نسعى لتعزيزها ودوامها، ذلك لأنّ مثل هذا التوجّه القلبيّ إلى اللّه هو أمرٌ نفيسٌ جدًّا وباهظ الثمن، فيجب أن ندفع الثمن الباهظ لهذا الأمر النفيس، أي يجب علينا أوّلًا من خلال السعي وبذل الجهد أن نوجد هذه الحالة في أنفسنا، ومن ثمّ نعمل على تعزيزها والحفاظ عليها.

طرق تحصيل التوجّه القلبيّ إلى اللّه في الصلاة

١- التوجّه إلى عظمة اللّه المطلقة

من الطرق التي يمكن عدّها سبيلًا لتحقيق التوجّه القلبي إلى اللّه وتحصيل حالة الخشوع والخضوع هو التوجّه إلى عظمة اللّه المطلقة وإدراك حقارة الذات. فنحن من خلال مشاهدة نعم اللّه، وعن طريق تصوّر عظمة مخلوقاته، وحتّى مع الاستعانة ببعض الصور الخيالية والذهنيّة، يجب أن ندرك شيئًا يسيرًا من عظمة اللّه. فنحن مهما وسّعنا من أذهاننا، واستحضرنا الصورة العظيمة للعالم الماديّ في خاطرنا، واستعنّا بالمفاهيم الذهنيّة واستمدّينا من قوّة الخيال، ومهما تمكّنّا من تصوّر عظمة الخلق الإلهيّ، فإنّ إدراكنا وتصوّرنا سيكونان حقيرين جدًّا ولا شيء مقابل عظمة العالم. إنّ عظمة عالم الخلقة هي بحيث أنّ المسافة فيه بين نجمين تساوي مليارات السنوات الضوئيّة، وحين نحاول إدراك مسافة السنة الضوئية الواحدة نعجز عن ذلك، فكيف بإدراك مليارات السنوات الضوئيّة!

يمكننا في مجال تصوّر عظمة اللّه، أنّ نتصوّر فضاءً عظيمًا مترامياً، أو بادية كبيرة وواسعة، أو محيطًا كبيرًا وعميقًا، ومن ثمّ نقيس أجسامنا الصغيرة والضئيلة بها، ونسأل في مقام المقارنة، ماذا يشكّل جسمنا نسبةً إلى هذا العالم الماديّ الكبير، الذي هو قابل للتصوّر بالنسبة لنا. ولعلّنا سنصل من خلال هذه المقارنة إلى هذه النتيجة وهي أنّ أجسامنا إذا ما قورنت بجزءٍ من هذا العالم الماديّ القابل للتصوّر، فإنّها ستكون مثل موجودٍ ضئيل لا يُرى إلّا بالمجهر، فماذا عن تلك العوالم التي لا سبيل لنا إلى إدراك عظمتها! وفي ظلّ تلك المقارنة المادية والجسمانية،

فإنّنا غالبًا ما ندرك مدى ضعتنا وحقارة وضعنا الروحي والمعنويّ ونقصاننا. ولكن بالرغم من أنّ هذا الإنسان هو موجود صغير وضئيل، إلّا أنّ اللّه قد منحه روحًا معنويّة تستطيع أن تستقر في شعاع معرفة اللّه وتُحقّق الارتباط به.

ومن الأدعية المأثورة التي يتم التوصية بقراءتها قبل الصّلاة، يمكن استخلاص نكات قيّمة، تساعدنا رعايتها على أداء صلاتنا على وجهٍ أكمل وأفضل.. ومن تلك النكات التي يُعدّ الالتفات إليها أهم من أي شيء آخر هو التوجّه إلى مقام الألوهيّة ومقام عظمة اللّه؛ وفي المقابل التوجّه إلى صغر الإنسان وضآلته. ويُعدّ هذا التوجّه مهمًّا ومثمرًا بحيث تمّ التّأكيد على المصلّي بأن يبدأ صلاته بسبع تكبيرات، وأن يتلفّظ بست تكبيرات قبل تكبيرة الإحرام. وقد ورد بشأن فلسفة تشريع استحباب التكبيرات السبعة عند البدء بالصلاة، أنّ رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان في حال تأدية الصلاة والإمام الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يصلّي إلى جانبه، فكبّر رسول اللّه لكنّ الإمام الحسين لم يتمكّن من تأدية التكبير بنحوٍ صحيح. فلم يزل رسول اللّه يؤدّي التكبير والإمام الحسين يصحّح تكبيرته. وبعد أن وصل الرسول إلى التكبيرة السابعة، استطاع الإمام الحسين أن يؤدّي التكبيرة السابعة بالشكل الصحيح، ومنذ ذلك الحين أصبحت التكبيرات السبعة مستحبّةً في بداية الصلاة[1].

---

(١) **العلاّمة المجلسيّ، بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٤٤، الصفحة ١٩٤. الرواية: عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ فِي الصَّلَاةِ وَإِلَى جَانِبِهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. **فَكَبَّرَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَمْ يُحرِ الْحُسَيْنُ** التَّكْبِيرِ، ثُمَّ كَبَّرَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **فَلَمْ يُحِرِ الْحُسَيْنُ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التَّكْبِيرَ، وَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُكَبِّرُ وَيُعَالِجُ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التَّكْبِيرَ **فَلَمْ يُحِرْ حَتَّى أَكْمَلَ** سَبْعَ تَكْبِيرَاتٍ فَأَحَارَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التَّكْبِيرَ فِي السَّابِعَةِ؛ فَقَالَ **أَبُو عَبْدِ الله** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **فَصَارَتْ سُنَّةً**».

وكما يُلاحظ، فإنّ استحباب التكبيرات السبعة والتأكيد عليها عند البدء بالصلاة، الذي يُعدّ عنوان التوجّه إلى عظمة مقام الألوهية والتوجّه إلى ضآلة الإنسان وصغره في مقابله، إنما كان نتيجة التكبير من جانب رسول اللّه لأجل تعليم حضرة سيد الشهداء، ونحن نقوم في سائر العبادات أيضًا بأعمالٍ قد صدرت نتيجة سلوك أولياء اللّه وأصبحت مستحبة أو واجبة. فمن باب المثال، إنّ من المناسك والأعمال الواجبة في الحج هو السعي بين الصفا والمروة، وقد ذُكر في فلسفة تشريع هذا الواجب أنّه حينما كانت هاجر زوجة النبي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تسعى لتأمين الماء لإرواء طفلها إسماعيل وهو يعاني من العطش تردّدت بين الصفا والمروة، لأنّها كانت حين تصل إلى الصفا ترى أنّ الماء موجودٌ في =

٢- التوجّه إلى لطف الله المطلق بالإنسان

لو أنّ شخصًا ساعدنا عند الحاجة، أو قدّم لنا المال في أوقات العسرة، فإنّنا سنعتبر أنفسنا على الدوام مدينين له وشاكرين، ونسعى لئلّا نصرف ذلك المال في المجال الذي لا يرضيه. ولكن رغم أنّ اللّه قد منحنا النعم التي لا تُعدّ ولا تُحصى، لا أنّنا لا نحسب حساب تلك النعم ولا نقدّرها فحسب، بل نعتبر أنفسنا دائنين للّه ولا نجتنب كفران نعمته أو عصيانه، بل قد نصرف تلك النعم الإلهيّة في الطريق الذي يؤدي إلى غضبه وسخطه. فلو لم نكن أوفياء لأصدقائنا وتسبّبنا بأذاهم، فإنّهم سيبعدوننا عنهم ويطردوننا ولن يظهروا لنا الوجه الحسن بعد ذلك، ولكن مع كل ذلك العصيان والجفاء وعدم الوفاء في حقّ اللّه، وقلّة الأدب والاحترام تجاه ساحة ربّ العالمين وكفران نعمه، فإنّ اللّه لا يطردنا بعيدًا عنه بل يقبلنا. فلو أنّنا ذهبنا إلى صديقنا لطلب العفو منه، لا يمكن أن نغفل عنه أو لا نتوجّه إليه عند مقابلته والحديث معه. في حين أنّنا مع كل ذلك العصيان والذنوب، حين نذهب نلتمس اللّه ونذكره بألسنتنا، فإنّ قلوبنا تكون متوجّهة إلى مكانٍ آخر، وكأنّنا في حال الحاجة والتوجّه إلى الساحة الربوبية، قد أدرنا ظهورنا له وأعرضنا عنه؛ ويُعدّ هذا منتهى الوقاحة والوضاعة من العبد تجاه اللّه. فاللّه الذي هو مظهر الكمال والجمال واللطف والعفو المطلق ما زال يتقبّلنا بالرغم من كل ذلك السلوك القبيح الذي صدر منّا. وها هو سبحانه وتعالى يفرح بتوبتنا ورجوعنا إليه بصورةٍ لا توصف.

= المروة، وحين كانت تتحرّك نحو المروة كانت ترى الماء موجودًا في الصفا، وهكذا سعت بينهما سبع مرات ذهابًا وإيابًا. وحين رجعت في المرة السابعة إلى الصفا، شاهدت الماء ينبع من تحت قدمي النبيّ إسماعيل، ونحن ولأجل التأسي بهاجر واتباعها أصبح واجبًا علينا كمسلمين أن نسعى في أيّام الحج سبع مرّات بين الصفا والمروة، ويُعدّ هذا العمل من الأعمال الواجبة في الحج. كما أنّ الوقوف في منى وتقديم الأضحية فيها إنما كان لأجل التأسّي بإبراهيم الخليل واتّباعه حين أمره اللّه تعالى بأن يذبح إسماعيل ويقدّمه كقربان، وحين نجح في هذا الامتحان الإلهيّ أنزل اللّه إليه كبشًا عظيمًا ليضحّي به، ونحن نقوم بهذا العمل كأحد واجبات الحج. فبالالتفات إلى ما ذكرناه ليس بعيدًا أنّ هذه الرواية التي وردت بشأن تعليم النبي الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِه سيّد الشهداء كيفيّة التكبير صحيحةً. وقد صدرت في مجال تشريع استحباب التكبيرات السبع عند بدء الصلاة انطلاقًا من هذا العمل الذي قام به رسول اللّه مع سيّد الشهداء، وهذا ما يمكن أن يلفتنا إلى مقام وعظمة سيّد الشهداء ويؤدّي إلى أن نذكره أثناء صلاتنا.

رُوي عن أبي عبيدة الحذّاء، أنّه قال: «سمعت أبا جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «إِنَّ اللّه تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ وَزَادَهُ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ فَوَجَدَهَا، فاللّه أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ حِينَ وَجَدَهَا»[1].

فلو قمنا بتدريب أنفسنا وتمرينها أثناء الصلاة ولمدّةٍ ما، على استحضار عظمة اللّه ونعمه وألطافه وزوال هذه الحياة الدنيا، سيتحوّل التوجّه إلى هذه المعاني شيئًا فشيئًا إلى عادة وملكةً لدينا وسيحصل بصورة تلقائيّة، وفي النهاية، سوف نحقّق من الصلاة استفادة أعلى وأبلغ. حين يأنس الإنسان بسلوكيات واعتقادات معيّنة، ويشتغل بها بانتظام، فإنّ اللّه تعالى يمنحه هذه القدرة التي تمكّنه من تصوّر كل تلك الدوافع والأفكار والسلوكيّات التي أنِس بها والتوجّه إليها دفعةً واحدة.

إنّ هذه المفاهيم الرفيعة والتوحيدية، إنّما تتجلّى في ذاك الدعاء الذي تمّت التوصية بقراءته بعد التكبيرة الخامسة وقبل الصلاة:

«لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ؛ عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ بَيْنَ يَدَيْكَ مِنْكَ وَبِكَ وَلَكَ وَإِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى وَلَا مَفَرَّ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ سُبْحَانَكَ وَحَنَانَيْكَ سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ»[2].

٣- التوجّه إلى عظمة استقبال اللّه لعبده

يوجد نقطة مهمّة قلّما يتم الالتفات إليها، ومن الضروريّ ألّا تغيب عن أنظارنا، وهي أنّ الإنسان حين يذهب لالتماس عظيم، فيقوم ذاك العظيم باستقباله ويكون حاضرًا للاستماع إلى كلامه وسدّ حاجته، فإنّ هذا الإنسان يكون قد نال توفيقًا عظيمًا؛ وينبغي أن يفتخر أنّ هذا العظيم قد كان حاضرًا لاستقباله ومحادثته؛ فأيّ توفيقٍ أعظم من أن يقبل اللّه الإنسان ويجعله مورد مناجاته ويشمله بعميم ألطافه وعناياته! فمن هنا، يجب أن نكون شاكرين لهذا اللطف ولهذه العناية الإلهيّة، وهذا ما نلاحظه

---

(١) الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري (طهران: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ. ش)، الجزء ٢، باب التوبة، الرواية ٨، الصفحة ٤٣٥.

(٢) الشيخ عبّاس القمّي، **مفاتيح الجنان**، الباقيات الصالحات، دعاء التكبيرات.

في أنعمتنا الأطهار حين كانوا يناجون اللّه تعالى ويشكرونه على هذه النعم الكبرى.

فإحدى الأدعية التي تم التوصية بقراءتها قبل البدء بالصلاة: «اللهمَّ أَقْبِلْ إِلَيَّ بِوَجْهِكَ فأُقْبِلُ إِلَيْكَ بِقَلْبِي. اللهمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ. الْحَمْدُ للّه الَّذِي جَعَلَنِي مِمَّنْ يُنَاجِيه»[1].

وقد ورد أيضًا في المناجاة الشعبانيّة طلب العبد من اللّه بالإقبال عليه حين يدعوه ويناجيه، وأن يستقبله ولا يبعده عن ساحاته: «اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ واسْمَعْ دُعَائِي إِذَا دَعَوْتُكَ وَاسْمَعْ نِدَائِي إِذَا نَادَيْتُكَ وَأَقْبِلْ عَلَيَّ إِذَا نَاجَيْتُكَ فَقَدْ هَرَبْتُ إِلَيْكَ وَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ مُسْتَكِينًا لَكَ مُتَضَرِّعًا إِلَيْك»[2].

وفي الأدعية الافتتاحيّة للصّلاة، يتم الطلب من اللّه تعالى، الذي أجاز لعبده أن يتحدّث إليه، التوجّه إليه. وبالطبع، فإنّ اللّه تعالى يتوجّه إلى جميع مخلوقاته، ولكن لتوجّه اللّه إلى مخلوقاته وعنايته بهم مراتب، وليس الجميع على حدٍّ سواء. وكمثالٍ على ذلك، لو كنّا في محضر مقام القيادة المعظّم أو أحد مراجع التقليد العظام، مع مجموعة من الأشخاص، يحصل أحيانًا أن تشملنا هذه الشخصيّة العظيمة بنظرها كما تشمل الجميع، فلا تتوجّه إلينا توجّهًا خاصًّا؛ وأحيانًا أخرى، تخصّنا بالنظر من بين الجميع؛ فلا شكّ أن هذه النظرة تختلف عن النظرة الأولى، وهي نابعة من عناية هذه الشخصيّة ولطفها الخاص بنا، وتدلّ على رضاها عنّا وعدم وجود أي عتاب أو شكوى منها تجاهنا. فرغم أنّ اللّه يتوجّه إلى جميع مخلوقاته، ومحيط بجميع الأشياء، ولا يعزب عن علمه شيء، ويرى كلّ شيء، إلا أنّ هناك فرقًا شاسعًا ما بين توجّه اللّه ونظره إلى الظالمين أمثال الشمر ويزيد، وتوجّهه ونظره إلى أنبيائه وأوليائه. كما أنّ هناك فرقًا كبيرًا ما بين توجّه اللّه ونظره إلينا، وتوجّهه إلى سلمان وأبي ذر وبعض العباد الصالحين الذين أوصل اللّه إليهم سلامه عبر جبرائيل، وكان النبيّ مأمورًا بإيصال سلام اللّه إليهم. فلو أنّنا نصل إلى تلك الدرجة والمقام بحيث يرسل وليّ العصر عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف سلامه إلينا، فإنّنا لن نبقى على حالنا، وسوف نهيم في عالم اللذّة والفرح والحبور ونفتخر

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨١، الباب ٢٢، الرواية ١٩، الصفحة ٣٦٥.

(٢) **مفاتيح الجنان**، مصدر سابق، المناجاة الشعبانيّة.

بأنفسنا، لأنّنا أصبحنا مورد توجّه وعناية حجّة اللّه من بين ملايين البشر. فخليقٌ بالإنسان أن يبذل روحه من أجل الوصول إلى هذا التوفيق العظيم.

والآن تصوّروا أيّ درجةٍ وأيّ مقام هو لذاك الذي هو مورد سلام اللّه تعالى! فحريٌّ بهذا العبد أن يقول من أعماق وجوده أثناء مناجاة اللّه: «اللهمَّ إِلَيْكَ تَوَجَّهْتُ، وَرِضَاكَ طَلَبْتُ، وَثَوَابَكَ ابْتَغَيْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْت»[1].

٤- التوسّل بأهل البيت عليهم السلام

إذا أردنا المزيد من توجّه اللّه إلينا وعنايته بنا فمن الضروريّ قبل الشروع بالصلاة، التوسّل بالأئمّة الأطهار عليهم السلام، وأن نجعلهم وسيلتنا إلى اللّه. وقد أشير إلى هذه الوسيلة في الأدعية الواردة قبل الصّلاة، وتمّ التأكيد عليها والتوصية بها. ففي إحدى التوقيعات الشريفة الواردة عن الناحية المقدّسة لوليّ اللّه الأعظم، عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، جاء: «اللهمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِهِ وَصِلْني بِهِمْ وَلا تَقْطَعْني بِحُجَّتِكَ وَاعْصِمْني. وَسَلامُكَ عَلى آلِ يس. مَوْلايَ، أَنْتَ الْجاهُ عِنْدَ اللّه رَبِّكَ وَرَبّي»[2].

وقد جاء في نفس هذا التوقيع الشريف: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ نُورُنا وَأَنْتُمْ جاهُنا أَوقاتَ صَلاتِنا، وَعِصْمَتُنا بِكُمْ لِدُعائِنا وَصَلاتِنا وَصِيامِنا وَاسْتِغْفارِنا وَسائِرِ أَعْمالِنا»[3].

وكما ترون ففي هذا التوقيع الشريف، نجد الأئمّة المعصومين وحضرة وليّ العصر. عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف. قد ذُكروا كواسطة بيننا وبين اللّه، بحيث أنّ قبول الأعمال، ومنها الصلاة، تكون بفضل عنايتهم وتوجّههم وشفاعتهم.

وبالالتفات إلى الضعف والقصور والشوائب الموجودة فينا، فإنّنا لا نمتلك لياقة الحضور في محضر اللّه والتوجّه إليه ومناجاته، ولأجل ذلك فإنّ اللّه تعالى

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨١، الباب ٤٤، الرواية ١٨، الصفحة ٣٦٥.
(٢) المصدر نفسه، الجزء ٩٤، الباب ٢٨، الرواية ٢٢، الصفحة ٣٩.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٣٨.

قد أعدّ لنا سبيلًا نستطيع من خلاله التقرّب إليه، وهو سبيل أهل البيت، تلك الأنوار المقدّسة، التي ببركة التوجّه إليها والتوسّل بها، يتوجّه اللّه إلينا ويعتني بنا. إنّ التوجّه إلى أهل البيت يؤدّي إلى تقرّبنا من اللّه، ويساعدنا على تأدية الصّلاة بحضور قلب أكبر. إنّ التوسّل بأولياء اللّه يبعد الشيطان عن حرم قلوبنا. وبالرغم من كل ذنوبنا وتقصيرنا والقبائح التي تصدر منّا تجاه اللّه، فإنّ التوسّل بهم عليهم السلام، الذين لديهم مقام ومنزلة رفيعة عند اللّه، سيؤدّي لأن يشفعوا لنا في محضر اللّه، وتكون النتيجة أن يغفر اللّه ذنوبنا وينزل بركاته وتوفيقاته علينا.

وفي الدّعاء الوارد عن النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ نقرأ: «اللهمَّ إنّي أَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِمُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد وَأَتَقَرَّبُ بِهِمْ إِلَيْكَ وَأُقَدِّمُهُمْ بَيْنَ يَدَي حَوائِجي»[١].

يجب الالتفات إلى أنّ وجود حضرات المعصومين وأولياء الدين هي من أعظم نعم اللّه علينا حيث نستطيع باتّباعنا لهم وببركة وجودهم، أن نقترب منه تعالى. في هذا العصر والزّمان أيضًا، فإنّ أكبر النّعم الإلهيّة لنا، هي وجود حضرة وليّ العصر عجّل اللّه فرجه الشّريف، وهو وجودٌ عزيزٌ ومقدّس، قد بلغ قمّة العظمة والشّرف والمنزلة. وكلّما ازدادت معرفتنا بنورانيّته ومقامه العزيز عند اللّه، فإنّنا سوف نزداد سعيًا لتحصيل رضاه والتقرّب إليه، وبواسطته نتقرّب إلى المقام المطلق لربّ العالمين.

أجل، يجب أن نتوجّه أثناء الصلاة إلى أنّ كلّ شيءٍ هو من اللّه وليس لأحدٍ شيءٌ من نفسه، ولو لم يمنحنا اللّه تعالى المعرفة والإدراك والقدرة، لما تمكّنّا من أداء الصّلاة. إنّ الالتفات إلى هذه المفاهيم التوحيديّة العظيمة وإدراكها، يؤدّي إلى زيادة قيمة الصّلاة ونوعيّتها ويزيد من دورها وتأثيرها على حياتنا المعنويّة.

كما جاء في الدّعاء: «أَنْتَ مَنَنْتَ عَلَيَّ بِمَعْرِفَتِهِمْ فَاخْتِمْ لي بِطاعَتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ وَوِلايَتِهِمْ، فَإِنَّها السَّعادَةُ فَاخْتِمْ لي بِها فَإِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[٢].

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٩١، الرواية ١٩، الصفحة ٢٢.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٨١، الباب ٢٢، الرواية ٢٢، الصفحة ٣٧٠.

الفصل الثاني

وسائل تحصيل الإخلاص وقصد القربى في الصلاة

موقعيّة الإخلاص في الصلاة

إنّ أدنى مراتب النيّة في الصلاة، والتي تبطل الصلاة من دونها، هي أن يؤدّي المصلّي الصلاة طاعةً للّه وامتثالًا لأمره. يجب أن يكون دافع المصلّي طاعة أمر اللّه، بحيث أنّه لو لم يكن للّه تعالى أمرٌ بشأن الصّلاة، أو لم تكن هذه الصلاة مطلوبةً عند اللّه، لما أقامها. وبهذه الدّرجة من النيّة والدّافع، تكون صلاة الإنسان صحيحةً ويسقط التكليف عنه ولا يجب عليه إعادتها وقضاءها. أمّا قبول الصّلاة عند اللّه تعالى فإنّه يرتبط بكون نيّة الإنسان خالصةً وأن يكون في صلاته قاصدًا للتقرّب إلى اللّه تعالى، فمثل هذه الصّلاة هي التي تؤدّي إلى تكامل الإنسان وتقرّبه من اللّه. وكما ذكرنا، ففي بعض الروايات تمّ تقسيم العبادات وبتبعها النوايا المتعلّقة بها إلى ثلاثة أقسام:

١- عبادة العبيد: وهي العبادة التي يؤدّيها الإنسان خوفًا من عذاب اللّه.

٢- عبادة الأجراء: وهي العبادة التي يؤدّيها الإنسان على أمل الوصول إلى الثواب والجنّة.

٣- عبادة الأحرار: هي التي تكون لأجل اللّه فقط.

وهكذا، فإنّ للخلوص درجات ومراتب، وأعلى درجاته هو الخلوص المحض والكامل للّه بحيث لا يكون في النفس أيّ دافعٍ أو مطلبٍ، وهي مرتبةٌ عظيمةٌ يجب أن يقطع الإنسان مسافةً طويلةً وشاقّة من أجل الوصول إليها.

إنّ الذين يعبدون اللّه خوفًا من عذابه أو طمعًا بجنّته لم يصلوا إلى الإخلاص الكامل، وتكون درجة خلوصهم ممتزجةً بحبّ الذّات والتوجّه إلى النفس. وما لم يصل الإنسان إلى تلك المرتبة من الخلوص التي لا يرى فيها نفسه ويصبح فانيًا فناءً تامًّا في جمال المحبوب، يجب عليه أن يقطع مسافةً طويلة. ولقد شاهدنا بالعيان كيف تؤثّر أنواع الترغيب والترهيب والتحذير في الأشخاص العاديين، وبالأخص الأحداث، الذين بلغوا سنّ التكليف حديثًا، وتقضي إلى أن يؤدّوا الصّلاة؛ ولولا هذه الترغيبات والترهيبات، لما كانوا يصلّون.

كلام المرحوم المجلسي بشأن قصد القربى في الصلاة

للمرحوم المجلسيّ كلامٌ بشأن صعوبة تحصيل الإخلاص في الصلاة، حيث يقول: «وَأَمَّا الْقُرْبَةُ فَهِيَ أصْعَبُ الأمُورِ وَلا يَتَيَسَّرُ تَصْحِيحُها عِنْدَ إرادَةِ الصَّلاةِ، بل يَتَوَقَّفُ عَلى مُجاهَدات عَظيمَة وَتَفَكُّرات صَحِيحَة وَإزالَةِ حُبِّ الدُّنْيا وَالأمْوالِ وَالاعْتِباراتِ الدُّنْيَوِيَّةِ عَنِ النَّفْسِ... وَالتَّوَسُّلِ في جَمِيعِ ذلِكَ بِجنابِ الْحَقِّ تَعالى لِيَتَيَسَّرَ لَهُ إحْدى الْمَعانِي السّابِقَةِ بِحَسَبِ اسْتِعْدادِهِ وَقابِلِيَّتِهِ وَما صادَفَهُ مِنْ تَوْفِيقِ اللّه وَهِدايَتِهِ، فَإنَّ كُلًا يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ، وَنِيَّةُ كُلِّ امْرِئ تابِعٌ لِما اسْتَقَرَّ في قَلْبِهِ مِنْ حُبِّ اللّه أوْ حُبِّ الدُّنْيا أَوْ حُبِّ الْجاهِ أَوِ الْمالِ أَوْ غَيْرِ ذلِكَ. وقَلعُ عُرُوقِ هذِهِ الأغْراضِ عَنِ النَّفْسِ في غَايَةِ الْعُسْرِ وَالإشْكالِ، وَمَعَها تَصْحِيحُ النِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ الْمُحالِ، وَلِذا وَرَدَ «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ. فَكَمْ مِنْ عابد مِنْ أَهْلِ الدُّنْيا يَظُنُّ أَنَّ نِيَّتَهُ خالِصةٌ للّه ولا يَعْبُدُ في جَمِيعِ عَصْرِهِ إلاّ نَفْسَهُ وَهَواهُ»[1].

لقد توجّه علماء الأخلاق في كتبهم إلى قضيّة النيّة والإخلاص، وخصوصًا في كتاب أسرار الصلاة لحضرة الإمام، والكتب التي ألّفها أمثال المرحوم الشهيد الثاني، والمرحوم الميرزا جواد التبريزي، ويوجد أيضًا في الأبحاث التي تطرّق إليها، كلٌّ من المرحوم الملّا مهدي النراقي، والمرحوم الملّا أحمد النراقي، في هذا الصدد، مطالب في غاية الأهميّة وجديرةٌ بالقراءة. ولعلّه يمكن أن يُقال في هذا المجال إنّ الغزّالي في كتابه إحياء العلوم، قد سبق الجميع في هذا المضمار وطرح هذه

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٨، الصفحة ٣٧٢.

الأبحاث بمضمونٍ عالٍ جدًّا. ولحسن الحظّ، قام المرحوم الملّا محسن الفيض الكاشاني، بتنقيح وتهذيب كتاب إحياء العلوم للغزّالي، وعُرف كتابه هذا بالمحجّة البيضاء. وفي هذا الكتاب، ذكر الفيض الكاشاني روايات أهل البيت، مكان تلك الروايات الضعيفة والمخدوشة والتي نُقلت في إحياء العلوم عن أهل السنّة. وبهذه الطريقة، أضاف على قيمة وفضيلة هذا الكتاب. وفي المجلّد الثامن من هذا الكتاب، عرض لقضيّة النيّة والإخلاص ضمن مباحث قيّمة جدًّا. وأنا أوصي الجميع بمطالعة هذه الأبحاث، التي لها قيمة عالية وهي قليلة النّظير، ولعلّه يمكن الادّعاء أنّ كل ما كتبه الآخرون في هذا المجال لم يزد عمّا ورد في هذا الكتاب، بل كان أخذ وتلخيص لمباحثه.

الرياء مفسدٌ للصلاة

إنّ بعض الدوافع تفسد العبادة فسادًا كاملًا وتبطلها، ولا يكفي أنّها تفرغ هذه العبادة من أيّ أثرٍ إيجابيّ بل قد تؤدّي أيضًا إلى سقوط الإنسان، ويُعدّ الرياء أحد أهم موانع تأثير الأعمال العباديّة وأكثرها رواجًا.

والرياء يعني إظهار النفس والتظاهر أمام الآخرين، ويعني القيام بالعمل بدافع أن يراه الآخرون ويثنوا عليه ويمجّدوه وهو يلتذّ بمثل هذا المدح ويفرح ويُعجب به. فكلّ من يقوم بالعبادة بهذه النيّة، فإنّه أثناء عبادته، سيتوجّه بكلّ حواسّه وأفكاره وأذكاره من أجل تحقيق رضا الآخرين، وهو غافلٌ عن كون هذا العمل ممّا يرضي اللّه أو لا!

ويوجد في القرآن الكريم آيتان بخصوص الريّاء في الصلاة، ففي إحدى السور القرآنيّة قال اللّه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾[1]؛

وفي آيةٍ أخرى يقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

---

(١) سورة **الماعون**، الآيات ٤-٦.

(٢) سورة **النساء**، الآية ١٤٢.

ولا يكفي أنّ هذه الصلاة لن تكون ذات فائدة لهم، بل إنّها ستزيد من عذابهم[١].

أمّا النقطة المقابلة للرياء فهي الإخلاص. فالإخلاص عبارةٌ عن قيام الإنسان بالعمل فقط من أجل الالتزام بالأمر الإلهيّ وتحصيل رضا اللّه، وألّا يكون في قصده ونيّته أيّ شيءٍ آخر سوى هذا. فهو لا يريد أن يظهر نفسه وعمله للآخرين من أجل الحصول على مدحهم وثنائهم، وإنّما ينظر إلى اللّه فقط.

بالطبع، من الممكن أن يكون عمله في محضر الآخرين، ولكن لا يكون قصده أن يراه هؤلاء. لا بل يمكن أن يكون أداء هذا العمل في محضر الآخرين في بعض الموارد أمرًا مستحبًّا ويُعدّ عبادةً إضافيّة، فيما لو أخلص الإنسان قصده، وأدّى العمل لأجل اللّه فقط. فنجد أنّ اللّه تعالى يقول في كتابه العزيز في مورد الإنفاق: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[٢].

يوجد روايات عديدة في مورد إخفاء الإنفاق وعدم اطلاع الآخرين على ما ننفقه. وقد جاء في روايةٍ أنّ اللّه تعالى يحبّ إذا قام عبده بصدقةٍ أو نفقةٍ ألا تعلم يده اليسرى ما تنفقه يده اليُمنى! ومثل هذه الروايات جاءت من أجل التأكيد على كمال الإخفاء في الإنفاق، ولكن مع ذلك، فإنّ الإنفاق العلنيّ يكون مطلوبًا في بعض الأحيان، ولذلك فإنّ القرآن والروايات قد أمرت بالإنفاق السرّيّ الخفيّ، وبالإنفاق العلنيّ الجهريّ. فالإنفاق العلنيّ يكون من أجل الدعوة إلى هذا العمل الحسن والترويج له، أي إنّنا ننفق أمام الآخرين من أن أجل أن يتأسّوا بنا، ويتشجّعوا على القيام بهذا العمل الخيّر. وبالطبع، يجب على الإنسان في مثل هذه الموارد

---

(١) وقد أشار القرآن الكريم إلى الرياء أيضًا في الإنفاق والزكاة، والرياء في الجهاد أيضًا. ففيما يتعلّق بالرياء في الزكاة يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، [سورة **النساء**، الآية ٣٨]؛ وفيما يتعلّق بالرياء في الجهاد: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، [سورة **الأنفال**، الآية ٤٧].

بناءً عليه، فإنّ الرّياء لا يختصّ بالصلاة. فإنّ كل عبادة يؤدّيها الإنسان من أجل التظاهر وإراءة الناس تكون عبادةً ريائيّة.

(٢) سورة **إبراهيم**، الآية ٣١.

أن يكون حذرًا جدًّا لئلا يتطرّق إليه الرياء والعجب ويفسد عمله. ويوجد حدٌّ دقيقٌ ضيّقٌ جدًّا بين الإنفاق لتذكير الآخرين والإنفاق لأجل الحصول على مدحهم، وما لم يدقّق الإنسان في ذلك، فإنّ إنفاقه قد يصبح إنفاقًا ريائيًّا.

ومن هنا، يجب أن نكون في غاية الحساسيّة تجاه هذه القضيّة ونراقب كثيرًا وندقّق، لئلا نقضي عمرنا معتقدين بأنّنا أدّينا صلاتنا على نحوٍ جيّد ويكون قلبنا مطمئنٌّ لذلك، أمّا حين يفتحون كتابنا ويصلون إلى الحساب، يقولون لنا: إنّكم قد صلّيتم كل هذه الصلوات لأجل الناس، فاذهبوا وخذوا أجرها منهم! وقد جاء في إحدى الروايات المرتبطة بخفاء الرياء، أنّه قد يكون الرياء خفيًّا وغير محسوسٍ إلى درجة أنّ الملائكة نفسها لا تلتفت إليه، واللّه تعالى وحده يعلم بأنّه رياء.

إنّ الأعمال التي نقوم بها يجب أن تعبر عدّة محطّات تفتيشٍ قبل وصولها إلى درجة القبول. وقد جاء في هذه الرواية: «أنّ العبد يقوم بالعمل فيرتفع إلى السماء حتّى يصل السماء الأولى، وحين تفتّش ملائكة السماء الأولى المأمورة في فحص هذا العمل لا تجد فيه أيّ مشكلةٍ وتمضيه وتقبله، ثمّ يرتفع هذا العمل إلى السماء الثانية، فلا تجد ملائكة السماء الثانية فيه أي إشكال، فتمضيه وتصدّقه. وهكذا يتدرّج هذا العمل من سماءٍ إلى أخرى حتّى يصل إلى السماء السابعة، وبالرغم من أنّه يكون قد تعرّض للتفتيش والفحص سبع مرّات، وفي كلّ مرّة كان الفحص أدق من سابقه، ولم يظهر فيه أي فساد أو خراب وحصل في النهاية على كل علامات القبول، لكنّه حين يصل إلى محضر اللّه، فإنّ اللّه تعالى يقول: إنّ هذا العبد لم يؤدِّ العمل لي فعليه لعنتي»[1].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحتان ٢٤٦ و٢٤٧. نص الرواية: إن اللّه خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات، فجعل في كل سماء ملكًا قد جللها بعظمته، وجعل على كل باب منها ملكًا بوّابًا، فتكتب الحفظة عمل العبد من حين يصبح إلى حين يمسي، ثم يرتفع الحفظة بعمله، له نور كنور الشمس حتى إذا بلغ سماء الدنيا، فيزكيه ويكثره فيقول له: قف فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الغيبة فمن اغتاب لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري أمرني بذلك ربي. قال: ثم يجيئ من الغد ومعه عمل صالح فيمر به ويزكيه ويكثره حتى يبلغ السماء الثانية فيقول الملك الذي في السماء الثانية: قف فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه، إنما أراد بهذا العمل غرض الدنيا أنا صاحب الدنيا لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري. قال: ثم يصعد بعمل العبد مبتهجًا بصدقة وصلاة فتعجب الحفظة ويجاوزه إلى =

وعلى كلّ حال، يوجد روايات كثيرة في هذا المجال أخشى أن يؤدي نقلها إلى حصول حالةٍ من اليأس. ولكن أؤكّد مرّة أخرى على أنّه ما لم يظهر الإنسان الحذر والهاجس اللازمين، يُخشى من أن يُبتلى بالرياء.

الرياء

كنّا قد بيّنّا رغم أنّه يمكن لأي عمل أن يُنجز لنيل رضا اللّه وأن يُضفى عليه صبغة العبادة، ولكن يوجد هناك أعمال لا بدّ من قصد القربى فيها والامتثال للأمر الإلهيّ أثناء أدائها، وإذا لم تؤدَ وِفق هذه النيّة، لا أنّها تكون فاقدة للثواب فحسب، بل تستوجب العذاب. وفي هذه الأعمال التي تُعتبر عبادة بالمعنى الخاصّ للكلمة،

= السماء الثالثة فيقول الملك: قف فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه وظهره، أنا ملك صاحب الكبر، فيقول: إنه عمل وتكبّر فيه على الناس في مجالسهم، أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كالكوكب الدري في السماء له دوي بالتسبيح والصوم والحج فيمر به إلى ملك السماء الرابعة فيقول له: قف فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه وبطنه، أنا ملك العجب فإنه كان يعجب بنفسه وإنه عمل وأدخل نفسه العجب أمرني ربي لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري وأضرب به وجه صاحبه. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد كالعروس المزفوفة إلى أهلها فيمر به إلى ملك السماء الخامسة بالجهاد والصلاة ما بين الصلاتين، ولذلك رنين كرنين الإبل عليه ضوء كضوء الشمس، فيقول الملك: قف أنا ملك الحسد، فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه وتحمله على عاتقه [إنه كان يحسد من يتعلم ويعمل للّه بطاعته، فإذا رأي لاحد فضلا في العمل والعبادة حسده ووقع فيه فيحمله على عاتقه] ويلعنه عمله. قال: وتصعد الحفظة فيمر بهم إلى ملك السماء السادسة فيقول الملك: قف أنا صاحب الرحمة، اضرب بهذا العمل وجه صاحبه، واطمس عينيه لان صاحبه لم يرحم شيئا إذا أصاب عبدًا من عباد اللّه ذنبًا للآخرة أو ضرًّا في الدنيا يشمت به أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري. وقال: وتصعد الحفظة بعمل العبد أعمالًا بفقه واجتهاد وورع، له صوت كالرعد وضوء كضوء البرق، ومعه ثلاثة آلاف ملك فيمر بهم إلى ملك السماء السابعة فيقول الملك: قف واضرب بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الحجاب أحجب كل عمل ليس للّه، إنه أراد رفعة عند القواد، وذكرًا في المجالس وصوتًا في المدائن، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ما لم يكن خالصًا. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجًا به من خلق حسن، وصمت وذكر كثير، تشيعه ملائكة السماوات السبعة بجماعتهم، فيطؤون الحجب كلها حتى يقوموا بين يديه فيشهدوا له بعمل صالح ودعاء، فيقول اللّه: أنتم حفظة، عمل عبدي وأنا رقيب على ما نفسه عليه، لم يردني بهذا العمل، عليه لعنتي، فيقول الملائكة: عليه لعنتك ولعنتنا.

فإنّ النيّة شرط لصحّة العمل؛ بناءً عليه مع فرض عدم صحّة النيّة يكون ذاك العمل باطلًا. ورغم أنّ بحثنا يدور حول الصّلاة بالخصوص، لكنّنا أشرنا إلى أنّ هناك عبادات أخرى غير الصلاة تتقوّم بالنيّة أيضًا، وفي حال أدّاها العبد بنيّة الرّياء فإنّها تصبح باطلةً.

بالطبع، هناك أبحاثٌ بين الفقهاء فيما يتعلّق ببعض العبادات مثل الخمس والزكاة وهي أنّه لو لم ينوِ الإنسان فيها قصد القربى فهل يعني ذلك أنّ التكليف المالي لم يسقط عنه، أم أنّه يسقط ولكنّه يُعدّ مذنبًا بسبب قيامه بهذه الفريضة مراءاةً، أو أنّ الرّياء في الخمس والزّكاة ليس مبطلًا للعمل ولا يُعدّ معصيةً، إنّما فقط يؤدّي لأن يخسر صاحبه ثواب العمل، فمثل هذه المباحث تخصّصيّة وترتبط بالفقهاء والمراجع وهي خارجةٌ عن مورد بحثنا.

هناك أعمالٌ، يمكن تقسيمها بالتقسيم الكلّيّ إلى فئتين، إذا ما تمّ أداؤها بصورة العبادة وتمّ ملاحظة قصد القربى فيها: الفئة الأولى منها، هي تلك الأعمال التي ليس لها ماهية وعنوان أصلي سوى إظهار العبوديّة في محضر اللّه، ولم يُلحظ فيها أيّ وجهٍ آخر، مثل الصيام والصلاة والحج.

أمّا الفئة الثانية، فهي تلك الأعمال التي لم يكن القصد والغرض الأصليّ فيها إظهار العبودية في محضر اللّه، ولكنّ قصد القربى قد اعتُبر شرطًا فيها في الوقت نفسه. فعلى سبيل المثال، إنّ الهدف الأساسيّ لتشريع الزكاة هو إعانة المساكين والمحتاجين وتأمين المصارف الأخرى التي حُدّدت في الزكاة، وفي الوقت نفسه تمّت ملاحظة قصد القربى أثناء أدائها. وقد كان الإمام الخمينيّ، قائد الثورة الكبير، يُعبّر عن هذه الأفعال بالأفعال القربيّة.

ففي مثل هذا النوع من الموارد، التي تكون ماهية الفعل عبارة عن إظهار العبوديّة بين يديّ اللّه، يجب أداء العمل بصورةٍ خالصةٍ بقصد القربى، ولا ينبغي أن يكون فيه أيّ قصدٍ أو نيّةٍ أخرى. فلو أنّ الشخص الذي يصلّي، صلّى من أجل امتثال الأمر الإلهيّ من جهة، وكذلك من أجل الرّياء والحصول على مدح النّاس، فإنّ صلاته لا تكون باطلة وفاقدة للثواب فحسب، بل تُعدّ معصيةً. ولكن هناك موارد أخرى كالإنفاق، الذي لا تكون ماهيّته عبارة عن إظهار العبوديّة، فإذا لم يؤدَّ بقصد القربى، فإنّ أثره بحسب الظّاهر سيكون منحصرًا بهذا الحدّ، وهو أنّ هذا العمل لن يعود

على صاحبه بالنفع لكنّه لا يستوجب العذاب والعقاب أيضًا. ففي الإنفاق مثلًا، سيكون حال مثل هذا الشخص مثل ذاك الذي رمى ماله في البحر[١]. إنّ فائدة ومؤثّرية هذا النوع من الأعمال يكمن في تأديتها بقصد القربى، أي أنّ قصد القربى مقوّمٌ للعمل ومن دونه لن يكون للعمل رسمًا حتى يكون له أثر. وبتعبير القرآن يجب أن يكون فيه: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[٢] و﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٣].

وعلى كلّ حال، إذا أردنا لأيّ عملٍ أن يتّخذ صبغة العبادة فلا بدّ من القيام به بنيّةٍ خالصةٍ وبقصد القربى، ولأجل إكمال هذا البحث نشير إلى عدّة روايات.

وقد جاء في حديثٍ قدسيّ: «أَنَا خَيْرُ شَرِيك فَمَنْ عَمِلَ لي وَلِغَيْري فَهُوَ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ غَيْري»[٤].

إنّ لكلّ شخص من الأشخاص الذين يشاركون في عملٍ ما سهم معيّن من الربح والمردود الحاصل منه. يقول اللّه تعالى أنا خير شريكٍ؛ وذلك لأنّني أصرف النظر عن كامل حصّتي، مهما كانت كبيرة وأعطيها لشريكي. فلو أدّيت صلاةً وكان ٩٩٪ منها للّه، و١٪ منها للنّاس، سيصرف اللّه النظر عن سهمه البالغ ٩٩٪ ويعطيه للنّاس لكي تكون كلّ صلاتك لهم. فكلّ عبادةٍ فيها أدنى سهم لغير اللّه، فسوف تُبتلى بذلك المصير وسوف يردّها اللّه تعالى كلّها؛ ويكون الرد أحيانًا مقتصرًا على بطلان العمل وفقدانه للثواب، وفي أحيانٍ أخرى، علاوة على ذلك، يعقبه العذاب[٥].

---

(١) بالطبع إنّ هذا العمل من حيث كونه إسرافًا يُعدّ معصيةً ويستوجب العقاب، ولكنّه لا يستوجب العقاب من جهة عدم إنفاقه. (غياثي كرماني).

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ٥٢.

(٣) سورة **الليل**، الآية ٢٠.

(٤) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٩، الباب ١١٦، الرواية ٣٢، الصفحة ٢٩٩.

(٥) يجب الالتفات إلى أنّ النيّة ليست شيئًا يصلح من المرّة الأولى، بل يحتاج إلى مقدّمات. الأمر ليس أنّ الإنسان كلّما أراد أن يقوم بفعلٍ يمكن أن يقوم به بأيّ نيّةٍ، فلأجل إخلاص النيّة، يجب على الإنسان أن يهيّئ ويعد المقدّمات مسبقًا، ومثل هذه المقدّمات من قبيل المعرفة والإيمان والتوجّه.

علامات الإخلاص والرّياء

لأجل تحديد فيما إذا كانت نيّة الإنسان خالصةً أثناء القيام بأي عمل أم لا، يوجد طُرق مختلفة وعلامات، لو قام المرء بالتدقيق فيها، فسوف يتّضح له اتّضاحًا كاملًا فيما إذا كانت نيّته خالصةً أم لا.

فلو قام أحدٌ ببناء مشفًى، عليه أن ينظر هل أنّهم إذا كتبوا اسم شخصٍ آخر مكان اسمه على هذا المشفى، سيكون لهذا الأمر أهميّة بالنسبة له وسوف ينزعج أم لا؟ فلو كان العمل للّه، فلا ينبغي أن يختلف الأمر بالنسبة له سواء كتبوا اسمه أم لم يكتبوا، ولو رأى عكس ذلك، فهذا دليلٌ على أنّ عمله لم يكن خالصًا. في بعض الأحيان، يكون الرياء في العمل خفيًّا على الإنسان نفسه، وهو يتصوّر أنّ عمله كان خالصًا في حين أنّ الأمر في الواقع لم يكن كذلك. إنّ من وظائف علماء الأخلاق هو أن يسعوا لتنبيه الإنسان إلى دوافعه الخفيّة وغير المرئيّة في سلوكه وعمله والتي لا يكون ملتفتًا إليها. فعلى سبيل المثال لو أنّ هذا الإنسان صلّى في مسجدٍ وبين جماعة عليه أن ينظر فيما لو لم يأتِ هؤلاء الناس وكان لوحده في المسجد، فهل كان سيؤدّي صلاته على النحو نفسه؟ ولو كان الجواب سلبيًّا فليعلم أنّ الرياء قد وجد طريقًا إلى صلاته. ولو كان الظلام دامسًا ولم يتمكّن الآخرون من ملاحظة حركاته ووجهه وأفعاله في حال الصلاة، فهل كان ليتصرّف بالطريقة نفسها الآن وقد أصبح المصباح مضاءً وأضحى بإمكان الآخرين مشاهدة حركاته؟ فلو كان الجواب سلبيًّا، فهذا علامة على أنّ عمله كان رياءً. ولو كان يصلّي دائمًا في مكانٍ معيّن من المسجد، ثمّ صدف في أحد الأيّام أنّه لم يتمكّن من الصلاة في مكانه المعتاد، فهل كان لينزعج؟ فإذا انزعج فإنّ هذا علامة على أنّ عمله لم يكن خالصًا، بل ربما يوجد لموقعيّة العمل أيضًا تأثيرٌ في فعله!

أو لو أنّه على سبيل المثال كان إمامًا للجماعة وحصل له أن أخطأ في الصّلاة ولاحظ أنّه بسبب هذا الخطأ اعتراه الخجل وسال العرق على جبهته، فهذا علامة على أنّ لحضور الناس أو عدم حضورهم أهميّة بالنسبة له، لأنّه لو لم يكن الناس موجودين لما كان خجل من خطئه، ولكن حيث إنّ الناس الآن موجودون فإنّه يخجل، وهذه مرتبة من مراتب الرياء.

أو لو كان الإنسان يذهب مع صديقه كلّ يومٍ إلى المسجد، وصادف أنّ

صديقه اليوم كان مشغولًا ولم يأتِ، لذا لم يذهب إلى المسجد، فمن الواضح أنّ قصده لم يكن خالصًا في الأيّام السابقة، بل كان لمجيء صديقه دخالة في نيّته.

وحول هذه المسألة بالتحديد، ينقل المرحوم الحاج الميرزا جواد آغا الملكي التبريزي (رضي اللّه عنه)، في كتاب **أسرار الصلاة** هذه القصّة:

كان أحد الوجهاء يصلّي لسنوات في جماعة أحد العلماء الكبار، وكان دائمًا يقف في الصفّ الأوّل وفي مكانٍ خاصّ. في أحد الأيّام، حين وصل إلى الصّلاة كان الصفّ الأوّل قد اكتمل ولم يجد له مكان في ذلك الصفّ وفي ذلك المكان الخاصّ، فاضطرّ لأن يقف في مكانٍ آخر. وأثناء الصّلاة، شعر بالخجل لأنّه كان يصلّي في ذلك الصفّ، وفي ذاك المكان، وذلك لأنّ الناس كانوا دائمًا يشاهدونه في الصفّ الأوّل، وها هم اليوم يرونه يصلّي في الصف الثاني مثلًا، ممّا جلب لنفسه الشعور بالخجل!

وقد نقل المرحوم الحاج الميرزا جواد آغا ملكي، أنّه بعد هذه الحادثة قام هذا الرّجل الوجيه بإعادة صلواته التي صلّاها على هذه الحالة لمدّة ثلاثين سنة، وكان يقول إنّني حتّى اليوم لم أكن أعلم أنّني كنت أصلّي من أجل أن يراني الناس في الصفّ الأوّل، واليوم رأيت أنّني خجلت من الوقوف في الصفّ الثاني، فأدركت أنّ نيّتي لم تكن خالصةً وأنّ هناك شيء دخيلٌ فيها غير اللّه. فلو كانت خالصةً للّه، لما كان ينبغي أن يكون هناك أي فرق بالنسبة لي بين الصفّ الأوّل والثاني، فربّ الصفّ الثاني هو ربّ الصفّ الأول أيضًا، لا يوجد أي فرق!

وكذلك ينقل المرحوم الحاج الميرزا جواد آغا ملكي التبريزي في الكتاب نفسه قصّة أخرى على هذا النحو:

كان هناك شخصٌ يرغب في أيّام محرّم بالمشاركة في مجلسٍ خاصّ من مجالس العزاء، وفي أحد الأيّام شعر في نفسه وكأنّ ذاك المجلس الخاصّ قد كان له أهميّة بالنسبة له، ففكّر في نفسه وقال: لو كنت أذهب للمشاركة في مجالس العزاء من أجل البكاء على الإمام الحسين وإقامة العزاء لسيّد الشهداء، فإنّ المجالس من هذه الجهة لا تختلف فيما بينها، فلماذا كنت أرغب دومًا في أن أذهب إلى ذلك المجلس الخاصّ؟ وبقي مدّةً يفكّر في نفسه حتّى أدرك في النهاية وبعد مشقّةٍ ما هو السبب الذي جعل ذلك المجلس يتمتّع بتلك الخصوصيّة التي

كانت سببًا في ترجيحه على غيره، وهكذا وبعد هذه الحادثة قرّر أن يشارك في تلك المجالس التي لا يكون لها أيّ خصوصيّة بالنسبة له.

الرياء الخفيّ

إذا كانت العبادة خالصةً فإنّ قيمتها ستكون بمستوى قد لا تتمكّن الملائكة في بعض الأحيان من تحديد قيمتها، ولا يكون سوى اللّه تعالى قادرًا على إحصاء ثوابها. أمّا إذا لم تكن نية العمل خالصةً فإنّ هذا العمل سيكون مثل البضاعة المزيّفة التي لا تحوز على أيّ قيمة، أو مثل الغذاء المسموم الذي لا يكون فاقدًا للقيمة فحسب، بل يكون قاتلًا ومضرًّا أيضًا. ومن زاوية الأحكام الإسلاميّة، فإنّه لو سقطت قطرة دمٍ بمقدار رأس إبرة في وعاءٍ كبيرٍ جدًّا يحتوي على شرابٍ أو غذاءٍ سائل، فإنّ كل ذاك الشراب أو العصير أو الغذاء سيصبح نجسًا، وينبغي التخلّص منه وإهراقه بالرغم من كل المشقّات التي بُذلت من أجل إعداده والأموال التي أُنفقت لتأمينه.

وفي بعض الأحيان، قد تكون أعمال الإنسان العبادية على هذا النحو. فمن الممكن أن نؤدّي عبادةً ما، مع آلاف المشقّات والمتاعب ولكن لأنّنا كنّا نحمل في أنفسنا مقصدًا غير إلهيٍّ ولو كان بدرجةٍ صغيرةٍ جدًّا، فإنّ ذلك العمل بأسره يكون قد ضاع وذهب هباءً. ووفق الروايات، فإنّ اللّه تعالى يخاطب ملائكته ويأمرهم بأن يضربوا بهذا العمل وجه صاحبه[1].

من هنا، ينبغي أن نتوجّه، بالإضافة إلى ظاهر العبادة ومراعاة مسائلها الشرعيّة وأدائها بصورةٍ صحيحة، إلى النيّة فيها أيضًا، لكيلا ندرك ـ لا سمح اللّه ـ بعد مرور سنواتٍ على العبادة أنّ قصدنا لم يكن خالصًا، وأنّ عبادتنا طيلة هذا العمر لم تثمر أيّ ثمرةٍ لنا.

يوجد رواية ذُكرت في كتب الشيعة، وكذلك في كتب أهل السنّة، وهي أنّ الرسول الأكرم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وبعد أن اعتبر الرياء نوعًا من الشرك، قال: «إنّ الشِّرْكَ

(١) راجع الرواية الواردة في **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحتان ٢٤٦ و٢٤٧.

أَخْفى مِنْ دَبيبِ النَّمْلِ عَلى صَفاة سَوْداءَ فِي لَيْلَة ظَلْماءَ»[١].

إنّ النملة حشرةٌ صغيرةٌ جدًّا ولا تمتلك أيدٍ وأرجل طويلة، كما أنّ هذه الصخرة تكون صافيةً وملساء، وبناءً عليه فإنّ حركة مثل هذه النملة على الصخرة الصافية الملساء لا تحدث أي احتكاك أو اصطكاك ولا يمكن أن يصدر عن دبيبها أيّ صوتٍ مسموع يلتفت إليه سمع الإنسان. ومن هنا، إذا كان هذا الدبيب في ليلةٍ ظلماء فإنّه سيكون خفيًّا من جميع الجهات ولا يمكن الشعور به بحيث لا يمكن للإنسان أن يجد طريقًا لإدراكه فتبقى هذه الحركة خفيّةً خفاءً كاملًا، وقد ذكر النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّ نفوذ الشرك في قلب الإنسان هو أشدّ خفاءً من هذا الدبيب. ومن هنا، فإنّ الرّياء الذي يُعدّ نوعًا من الشرك يمكن أن يكون بمثل هذا الخفاء، ولعلّ هذه الآية الشريفة تشير إلى هذا النوع من الشرك، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٢].

بالطبع، للشرك مصاديق ومراتب متعدّدة وعلى الإنسان أن يطلب من اللّه تعالى ويسعى بنفسه لأداء عباداته بعيدًا عن أيّ نوعٍ من الشرك والرياء والدوافع غير الإلهيّة.

وفي بعض العبادات، فإنّ تمييز الرياء عن غير الرياء، يكون أسهل وفيه علائم أكثر وضوحًا. فالدعوة واعتلاء المنبر للخطابة، الذي هو عملنا نحن طلّاب العلوم الدينيّة، يُعدّ من هذه الموارد. ولا شكّ بأنّ هداية الناس وإرشادهم وترويج دين اللّه وبيان الأحكام والمعارف الإسلاميّة، كلّ ذلك يُعدّ من أكبر العبادات. وقد ورد في روايةٍ عن النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وهو يخاطب أمير المؤمنين عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لأَنْ يَهْدِيَ اللّه بِكَ رَجُلا واحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِمّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[٣].

بناءً عليه، فإنّ لهداية النّاس فضيلة لا يمكن أن توصف وثوابًا أعلى من أيّ تصوّر. لكنّ هذا العمل نفسه، الذي له كل هذا الثواب، إن لم يكن للّه فلا يحوز

---

(١) الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة** (لبنان- بيروت: دار إحياء التراث العربي)، الجزء ١٦، الباب ٣٦، الرواية ٢١٥٠١، الصفحة ٢٥٤.

(٢) سورة **يوسف**، الآية ١٠٦.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٣٢، الباب ١٢، الرواية ٣٩٤، الصفحة ٤٤٨.

على أي قيمة. إنّ كلّ هذا الثّواب إنّما يرجع إلى كون التبليغ والخطابة والهداية هم فقط وفقط من أجل نيل رضا اللّه. لكن من أين لنا أن نعرف إن كان هذا العمل للّه أم لا؟ أحد السبل لإدراك ذلك هو أن نرى لو كان هناك مبلّغٌ أو واعظٌ آخر قد ألقى هذا الكلام نفسه وأدّى كلامه إلى هداية شخصٍ ما، هل أنّنا حقًّا سنكون مسرورين بالقدر نفسه، أم أنّنا مسرورون الآن ونشعر بالرضا لأنّ هذا العمل قد أُنجز على أيدينا؟ فلو كان هدفنا فقط هداية الناس، فلا ينبغي أن يكون هناك أي فرق بين الحالتين. أو لو أنّكم بنيتم مشفى فصار النّاس يأتون إليه للعلاج وهو يقدّم العلاج المجّانيّ للمحتاجين فسوف يصلكم ثواب ذلك، سواءٌ وُضع اسمكم على هذا المشفى أم اسم شخصٍ آخر. فمن هذه الجهة لو كان الهدف في الواقع نيل رضا اللّه فإنّه يحصل باسمٍ أو بغير اسم، أمّا إذا أصرّ مثل هذا الإنسان على وضع اسمه على هذا المشفى فلا ينبغي أن يشكّ في عدم إخلاص نيّته.

بالطبع، إنّ الوصول إلى مثل هذه المراتب من الإخلاص ليس أمرًا سهلًا، بل يحتاج إلى السعي والكدح الكثير، مثل هذا العمل هو الذي يحوز على القيمة ويستحقّ مثل هذه المشقّة، لأنّ الفارق بين العمل الخالص والعمل غير الخالص كالفرق بين السماء والأرض.

قصّة حول الرياء والإخلاص

يُنقل عن العلّامة المجلسي قصّة، لا أعلم مدى صحّتها، ولكن على أيّ حال إنّ لهذه القصّة عبرة واقعيّة وإن لم تحدث بهذا الشكل. يُنقل أنّه بعد وفاة العلّامة المرحوم المجلسي، رآه أحد الأشخاص في منامه وسأله: ما هو الشيء الذي أدّى إلى نجاتكم، ومن بين كل الخدمات التي قمتم بها والكتب التي ألّفتموها، والدروس التي أعطيتموها، أيّها كان الأكثر نفعًا لكم؟ فأجابه قائلًا: لم يكن لأيٍّ من هذه الأعمال التي قمت بها ذلك الأثر الذي توقّعته، فأثناء الحساب كان لكلّ منها عيوب ومشكلات. فسُئل ما هو الشيء الذي أدّى إلى نجاتكم؟ فقال: كنت ذات يوم أمرّ في زُقاق وأحمل بيدي تفّاحة، وأنا على هذه الحال، وإذ بامرأة (ويبدو أنّها كانت يهوديّة) تمرّ من ذلك المكان وهي تحمل ابنها في حضنها؛ فوقع نظر الطفل على التفاحة التي بيدي، وفهمت من حركاته أنّه يسعى لأخذ التفاحة من يدي. وحين التفتت أمّه إلى ذلك منعته وأمسكت بيده. فتقدّمت مباشرةً إلى هذا الطفل

وأعطيته تلك التفاحة من أجل إسعاده. وأنا الآن في هذا العالم يُقال لي أنّ عملك الخالص مئة بالمئة كان هذا العمل الذي لم يكن فيه شائبة التملّق إلى السلطان أو الشهرة أو التفاضل العلمي والمباهاة وأمثالها و... فقد وهبت تلك التفّاحة لأجل رضا اللّه فقط من أجل أن يسعد قلب ذلك الطفل.

على أيّ حال، ما هو مهمٌّ عند اللّه هو الخلوص والطهارة. فاللّه تعالى يحبّ أن تكون معاملة عباده معه خاليةً من الغلّ والغشّ. واللّه لا يقبل إلّا ما كان له خالصًا مئة بالمئة وإلّا فإنّه يقول أنا خير شريك وإنّني أتنازل عن حصّتي للشركاء الآخرين الذين جعلتموهم معي من وراء أعمالكم[1]. فاللّه لا ينظر إلى حجم العمل وكبره وصغره وظاهره، بل ما هو مهمٌّ عنده هو تلك النيّة التي تقف وراء ذلك العمل. إنّ روح العمل هو النيّة ويجب علينا أن نوصل معرفتنا ومحبّتنا للّه لذلك الحدّ الذي ينبع منه الخلوص والطّهر بصورةٍ تلقائيّة. فلا ينبغي لنا أن نبتهج بأنّنا عبدنا اللّه واجتنبنا معاصيه؛ فلعلّنا عند القيام بهذه العبادة أو الابتعاد عن المعصية، كنّا نمدّ النظر إلى غير اللّه، فكنا نريد مثلًا أن يمدحنا الناس أو أن نصبح مشهورين بالزهد والتقوى، أو ... فإن لم يكن العمل للّه فإنّ حسابه سيكون أيضًا على من قمنا بالعمل من أجلهم.

(١) راجع الرواية الواردة في: **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٩، الباب ١١٦، الرواية ٣٢، الصفحة ٢٩٩.

الفصل الثالث

في البحث عن روح الصلاة

الصلاة الحقيقيّة

كنّا قد أشرنا إلى أنّ ما يُستفاد من مجموع معارف الإسلام هو أنّ أهم الأعمال وأفضلها عند اللّه والتي تكون سببًا لنيل مراتب القرب الإلهيّ هي الصّلاة. وقد بُيّن في القرآن والروايات الإسلاميّة، خصائص وآثار الصلاة، ما يجعلها في مرتبة أعلى الأعمال وأشرفها. وكون الصلاة «خير العمل» هو أمرٌ قد صُرّح به في الشريعة المقدّسة، ونحن نقرّ بذلك كلّ يوم في آذان الصلوات الخمس وإقاماتها، ومن جملة الخصائص والآثار التي ذُكرت للصّلاة هو أنّ: «الصَّلاةُ مِعْراجُ الْمُؤْمِنِ»[1].

ورغم كلّ ذلك، فإنّنا وللأسف قلّما نستفيد من صلواتنا الاستفادات المطلوبة. فلا نشعر بلذّة الصلوات التي نؤدّيها ولا نحسّ بآثارها ونتائجها في وجودنا، بل على العكس، فإنّ الصّلاة بالنسبة لنا هي في الأغلب أمرٌ ثقيل ونتوجّه إليها ونحن كارهين. وحين ننهي صلاتنا نكون وكأنّنا قد ألقينا عن كاهلنا حملًا ثقيلًا كان يتعبنا ويجهدنا! هذا رغم أنّ صلواتنا هي في العادة عبارة عن أربع أو خمس دقائق أو لا تزيد عن عشر دقائق، لكنّ هذه الدقائق المحدودة أصبحت ثقيلةً بالنسبة لنا إلى الحدّ الذي نشعر كأنّها عبارة عن عدّة ساعات، وحين ننهي صلاتنا فإنّنا نتنفّس الصعداء وكأنّنا أصبحنا كطائرٍ وُضع في قفصٍ وهو يُطلق إلى الحريّة، وسرعان ما نصل إلى «السلام عليكم ورحمة اللّه» ونحن ننظر يمينًا ويسارًا من أجل أن

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٩، الباب ٤، الرواية ٢، الصفحة ٣٠٣.

نقوم بسرعة لأمورنا وأعمالنا. ومثلما ذُكر في القرآن الكبير: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[١].

بالطبع، إنّ صلواتنا هذه مهما كانت فاقدة للنورانية وضعيفة الأثر، فإنّها بالمقارنة مع ترك الصّلاة مسألة قيّمة جدًا جدًّا. فنفس أن يقوم الإنسان لأداء تكليفه في هذه الدقائق المحدودة في المحضر الإلهيّ ويمرّغ جبهته بالتراب، هو أمر ذات قيمة عالية جدًّا. إلا أنّ البحث هو أنّ قدر الصّلاة وأهميّتها والفوائد التي يمكن أن نجنيها منها هي أبعد من ذلك بكثير. فإنّ المسافة التي تفصل بين صلواتنا والصلاة الواقعيّة وآثارها هي أشبه بالمسافة بين الصفر والمطلق!

تفصلنا مسافةٌ بعيدة جدًّا عن ذلك الأفق الأعلى للصلاة وملكوتها؛ وللأسف، نحن محرومون من آثارها العجيبة تلك. وكما ذكرنا في اللقاءات السابقة، فإنّ سبب هذا الحرمان هو أنّنا حصرنا الصلاة في هذه الألفاظ الظاهرة والأذكار والحركات والسّكنات وغفلنا عن روحها وحقيقتها. الصلاة التي لا يتوجّه فيها الإنسان إلى معاني الألفاظ والحركات التي يؤدّيها، تشبه قرّاء الطّلاسم والمنجّمون والذين يضربون بالرمال، فهؤلاء إنّما يكرّرون كلماتٍ عجيبةٍ غريبةٍ لا هم ولا الآخرين يفقهون منها شيئًا! فلا يمكن أن يُتوقّع من صلاةٍ هي حصيلة لقلقة لسان وارتفاع وانحناء، أن توصل صاحبها إلى المعراج! إنّ صلاة أكثرنا تشبه الصلاة. ونحن إنّما نؤدّيها أداءً فقط. فحقًّا، إنّ صلاتنا في بعض الأحيان لا تختلف أبدًا عن عمل ذلك الشخص الذي يقوم بإجراء بعض الحركات الاستعراضيّة، فهو استعراضٌ للصلاة لا الصّلاة نفسها!

بالطبع، لا يلزم أن تكون الصّلاة طويلةً، فيمكن أن تكون قصيرةً ومختصرةً ولكنّها بالروح يمكن أن تخلق معجزةً وأن توصل صاحبها من أسفل سافلين إلى أوج الكرامة والعظمة. فينبغي أن نسعى ونسأل اللّه تعالى أن تكتسب صلواتنا روحًا، هناك حتمًا سوف نشاهد آثارها بالعيان (بمقدار ما ندرك من روحها).

فلو حازت الصلاة على الروح، سيكون أثرها اجتناب الفحشاء والمنكر، كما

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٤٥.

يقول اللّه في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

ومع ذلك، لقد شاهدنا الكثير من المصلّين، الذين بمجرّد خروجهم من المسجد، يسعون وراء المعصية، ولم يكن للصلاة تأثيرٌ في منعهم عن ارتكاب الذنوب والأعمال القبيحة. وما أكثر ما يتّجه المصلّون بعد الصلاة والمسجد مباشرةً إلى النظرة الحرام والصوت الحرام والكلام الحرام والمعاملة الحرام، وغيرها من أنواع المحرّمات!

حتّى إنّهم في بعض الأحيان لا يضطرّون للخروج من المسجد للقيام بهذه المحرّمات بل يرتكبونها داخل المسجد نفسه، فيبدأون بالغيبة والبهتان والكذب والاستهزاء بالآخرين. فحقًّا نسأل أيّ نوعٍ من الصلاة كانت صلاتهم؟! فلماذا لا تحبسنا هذه الصلاة عن المعاصي؟

ويروي أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن النبيّ الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال: إنّ الذي يصلّي الصلوات الخمس يكون حاله مثل الذي يغتسل كلّ يومٍ خمس مرّات في نهرٍ جارٍ، فهل يبقى عليه من الأدران والأوساخ شيء؟![2].

فرغم أنّنا نصلّي خمس مرّاتٍ في اليوم، لكنّنا ما زلنا ملوّثين بقذارات وأوساخ أنواع المعاصي! وكلّ ذلك لأنّ صلواتنا لم تكن صلاةً بل هي شبيهةٌ بالصلاة وأدائها.

والسؤال الآن هو إذا أردنا أن تكون صلاتنا واقعيّةً وحائزةً على الروح، ماذا ينبغي أن نفعل؟

ثلاث خطوات لأجل الوصول إلى روح الصلاة وحقيقتها

لأجل الاقتراب من روح الصلاة والاستفادة من حقيقتها يجب أن نخطو ثلاث خطوات:

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٥.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٩، الباب ١، الرواية ٤١، الصفحة ٢٢٠. إنّ نصّ الرواية على هذا الشكل: إنّما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهر جار على باب أحدكم فما ظن أحدكم لو كان في جسده درن ثمّ اغتسل في ذلك النهر خمس مرات في اليوم أكان يبقى في جسده درن؟! فكذلك واللّه الصلوات الخمس لأمتي.

الخطوة الأولى هي أن نتوجّه إلى الصّلاة أثناء أدائها. كثيرًا ما يحدث أن ينتهي الإنسان من قراءة سورة الفاتحة ويبدأ بقراءة سورة التوحيد، ولا يتذكّر أصلًا كيف قرأ سورة الفاتحة وأنهاها. حتّى إنّه قد يكون قد وصل إلى «السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته» فيلتفت إلى أنّه كان يصلّي! فهذا دليلٌ على أنّه لم يكن لديه أيّ توجّهٍ واعٍ إلى الصلاة وإلى ما كان يقوم به[1].

بناءً عليه، فإنّ الخطوة الأولى للوصول إلى حقيقة الصلاة وروحها هي «أن نتوجّه إلى ما نقوم به». فمن لحظة البدء، وحين نقف لتكبيرة الإحرام ومن قبل أن نقول «اللّه أكبر»، ينبغي أن نلتفت لماذا نحن نقف هنا وماذا نريد أن نفعل؟ بل أكثر من ذلك، علينا أن نكون متوجّهين من أوّل كلمة وجملة نبدأ بها الآذان والإقامة إلى القصد من هذه الجمل. فالحدّ الأدنى في ذلك هو أن يكون مثلنا كمثل كالذي حفظ نصًّا ما وهو يريد أن يتلوه على أحد الأشخاص فسيكون في مثل هذه الحالة مراقبًا لئلا يخلط بين الجمل والعبارات وأن يؤدّي هذه الحروف والكلمات بنحوٍ صحيح. بالطبع، على أثر التكرار ومرور الزمن تصبح قراءة الصلاة بالنسبة للإنسان «ملكة» ويستطيع بتوجّهٍ ضعيف ونصف واعٍ أن يؤدي القراءة بنحوٍ صحيح، لكنّ هذا المقدار من التوجّه ليس كافيًا لقبول الصلاة وتحقيق آثارها.

الخطوة الثانية لأداء الصلاة التي يمكننا الاستفادة منها، هي أن نتوجّه إلى معنى ومفاد كلّ جملةٍ أو ذكرٍ نتلوه. وهذا من الأشياء التي ينبغي أن نصرّ إصرارًا حتميًّا على تحقيقه. فإذا لم نُوفّق في هذه الصلاة لتحقيق هذا الأمر، فلنسعَ لتحقيقه في الصلاة التالية، وإذا لم نُوفّق في الصلاة التالية، فلنجدّد العزم لتحقيقه في الصلاة اللاحقة. وباختصار، هذا من الأمور اللازم تحقيقها. لأجل ذلك، يمكننا أن نعمل على هذا النحو وهو أن نستحضر بدايةً معنى كل جملة في الذهن قبل قراءتها، وبعد قراءة الجملة، فلو كنّا مثلًا نريد أن نقول «اللّه أكبر» نستحضر بدايةً

(١) لا شكّ أنّ للإنسان نوع من التوجّه أثناء القيام بالفعل الاختياري والإرادي، لأنّه من المستحيل أن يقوم الإنسان بأيّ فعلٍ اختياريّ من دون أي نوع من التوجّه، لكنّ مثل هذا الفعل الاختياريّ يكفي فيه أدنى مرتبة من التوجّه، وفيما يتعلّق بالصلاة فإنّ المقصود هنا أنّ التوجه يكون ضعيفًا إلى درجة أنّ الإنسان مثلًا إذا أراد أن يتذكر ما ذكره في التشهد وهو في الركعة الثالثة فإنّه لا يذكر شيئًا، فها هي الصلاة التي تفتقد إلى الروح والتي لا تحقق لأصحابها التكامل والتعالي.

في الذهن هذا المفهوم وهو أنّ اللّه أكبر من كلّ شيء ومن كلّ أحد، وبعدها نقول «اللّه أكبر». فلو أنّنا تدرّبنا على هذا النحو، فإنّنا سنصل إلى ذلك المستوى الذي نصبح معه قادرين على التوجّه دومًا إلى معاني ومفاهيم الألفاظ والعبارات التي نجريها على ألسنتنا. وعلى أيّ حال، فإنّ هذه المسألة هي مسألةٌ مهمّة جدًّا وأساسيّة. وإذا وُفّق المرء لتحقيقها فإنّه يكون قد خطا خطوةً كبيرةً على طريق الوصول إلى المقصود.

الخطوة الثالثة في هذا المسير هو أن نسعى لجعل أحوالنا القلبيّة أيضًا متناسبةً مع ذاك الشيء الذي نجريه على ألسنتنا، فإذا كنّا نقول في الصلاة: «إياك نعبد وإياك نستعين»، فينبغي أن يكون حالنا أيضًا بحيث لا يكون في قلوبنا سوى الاستمداد من اللّه تعالى، ولا نستعين بأحدٍ سواه. وحين نكبّر تكبيرة الإحرام، «اللّه أكبر»، فينبغي أن يكون اعتقادنا القلبيّ هو أنّ «اللّه أكبر».

فهل أنّنا حقًّا وصدقًا نشهد من أعماق قلوبنا وأرواحنا بأنّ اللّه أكبر من كلّ شيء؟ وهل أنّ هذا القول يظهر ويبرز في سلوكنا وأعمالنا؟ إنّ معظمنا لو فكّر ودقّق في حاله ووضعه سيرى أنّه ـ نعوذ باللّه ـ لا يحسب حسابًا للّه تعالى كما يحسب حساب طفلٍ صغير. نحن نخجل من ارتكاب الكثير من الأفعال في محضر طفلٍ صغير، ولكنّنا نسارع بكلّ وقاحة لارتكاب أعمال أسوأ بدرجات من تلك في محضر اللّه، أي أصبحنا من الناحية العمليّة والسلوكيّة بحيث لا أنّنا لا نعدّ اللّه «أكبر» فحسب، بل نعدّه «أصغر» من الجميع!

على أيّ حال، فإنّ لانطباق حال الإنسان في الصلاة مع ما يجريه على لسانه مراتب مختلفة. هناك مرتبة أو مراتب منها، يمكن للجميع التحقّق بها عن طريق التمرين. وهناك مراتب أخرى مختصّة بأولياء اللّه وبأولئك الذين وصلوا إلى درجاتٍ رفيعةٍ من المعرفة والكمال. وقد كان لأئمّتنا المعصومين عليهم السلام حالاتٌ عجيبةٌ جدًّا في صلاتهم، ولم يكونوا يتوجّهون لأي شيء غير اللّه أثناء الصلاة.

قصّةٌ عن أمير المؤمنين عليّ (ع)

إنّ تلك القصّة بشأن أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ معروفة، حين أصابه سهمٌ في قدمه ولم يتمكّنوا من إخراجه منها. ففي تلك الأيّام لم يكن هناك أدويةٌ أو مواد

مخدّرة ومسكّنة للألم. لهذا فإنّ إخراج ذلك السهم كان أمرًا صعبًا جدًّا. فانتظروا حتّى وقف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للصلاة، وفي تلك الحالة أخرجوا السهم من قدمه من دون أن يلتفت حضرته إلى هذا الأمر أو يشعر بالألم. ولعلّ تصوّر هذه القضيّة بالنسبة لنا فيه شيء من الصعوبة، لكنّ هذا الأمر لم يحصل لعليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فحسب، بل كان من نصيب تلميذٍ في مدرسة عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قصّة عن المرحوم آية اللّه الخوانساري

لقد سمعت هذه القصّة من أشخاصٍ موثوقين يمكن الاعتماد على كلامهم وقد شاهدوا هذه القضيّة على النحو التالي: ذات يوم مرض المرحوم آية اللّه العظمى الحاج السيّد أحمد الخوانساري وقد أدّى هذا المرض إلى أن يستوجب إجراء عمليّةٍ جراحيّةٍ في معدته. وكان من الطبيعيّ أن يتم تخديره كي يتمكّنوا من القيام بهذه العمليّة الجراحيّة. لكنّ المرحوم آية اللّه الخوانساري رفض البنج لسببٍ ما[1]. ولأجل ذلك طلب أن تُجرى العمليّة الجراحيّة له من دون بنج. ورغم إصرار الأطبّاء على ضرورة تخديره، كان يقول لهم قوموا بإجراء العمليّة من دون بنج! وعلى أيّ حال، في النهاية قام الأطبّاء بفتح معدته من دون البنج وأخرجوا قسمًا منها، ثمّ قاموا بما عليهم وأعادوا تقطيبها! وطوال هذه المدّة، لم يظهر حضرة آية اللّه الخوانساري أي ردّة فعل تدلّ على أدنى حالة من الألم والانزعاج. ولم يصدّق الأطبّاء أنّ مثل هذا الأمر يمكن أن يحدث في الواقع.

ويُنقل أنّ هذا الشخص الجليل كان قد توجّه بكلّ وجوده نحو ساحة الربّ المقدّسة طوال مدّة إجراء العمليّة الجراحيّة وكأنّه كان غافلًا كلّيًّا عن نفسه وعن العالم المحيط به. فلا شكّ بأنّ الذي يتمكّن من تركيز توجّهه إلى هذا المستوى أثناء عمليّةٍ جراحيّةٍ سيكون قادرًا على تحقيق هذا التوجّه أثناء الصلاة. وعلى أيّ حال، فإنّ مثل هذه الأمور قابلةٌ للتحقّق وينبغي أن نبذل الهمّة الكافية ونسأل اللّه تعالى أن يجعل مثل هذه الأحوال والمقامات من نصيبنا.

---

(١) لعلّه كان يعتبر أنّ البنج الذي يؤدي إلى الخروج عن الوعي هو كالموت ويستوجب إبطال الفتاوى ولأنّه كان مرجعًا للتقليد فلم يرد أن يوقع مقلّديه بهذا الإشكال. (غيّاثي كرماني).

كان الإمام الخمينيّ وغيره من علماء الأخلاق يوصون دائمًا «اسعوا لإدخال هذه الحقائق إلى القلب». فما الذي يعنيه كتابة الألفاظ والمعاني على صفحة القلب؟ وفي هذا المجال، يريد العلماء أن يميّزوا بين «الذهن» و«القلب». ففي الأساس يُعتبر ذهن الإنسان هو محلّ وموضع المعاني. فمن الممكن للكافر أن يتصوّر في ذهنه معنى «لا إله إلا اللّه»، ولكن لماذا يبقى مع ذلك كافرًا؟ ذلك لأنّه اكتفى بالتصوّر الذهنيّ لهذا المعنى، ولم يعمل على تثبيته في قلبه. ولهذا، فإنّ المؤمن يكون مؤمنًا لأنّه بالإضافة إلى تصوّر هذا المفهوم في ذهنه، فقد صدّق به بقلبه واعتنقه. ومثل هذا الكلام الصادر عن المرحوم الإمام وغيره من علماء الأخلاق نابعٌ من القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1].

فكان بعض الأعراب يأتون ويشهدون أمام الرسول بالوحدانيّة والنبوّة: «أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أنّ محمّدًا رسول اللّه». أولئك كانوا يتصوّرون أنّ الإيمان هو هذا. لهذا، فإنّهم كانوا يقولون إنّنا آمنّا باللّه ورسوله. فنزلت هذه الآية، لتقول لهم إنّهم وإن تلفّظوا بالشهادتين، وعملوا بتكاليفهم، إلّا أنّ الإيمان حتّى الآن لم يدخل قلوبهم. ذلك لأنّه إذا دخل شيء إلى القلب فلا بدّ أن تظهر آثاره في عمل الإنسان وسلوكه. من هنا، يجب أن نسعى لأن ندخل حقائق المسائل التي نتلفّظ بها في الصلاة أو التي نظهرها بصورةٍ عمليّة في سلوكنا، إلى قلوبنا أيضًا. فإذا قلنا «اللّه أكبر»، فعلينا أن نصل إلى حقيقة أنّ اللّه أكبر من كلّ أحد ومن كلّ شيء. وإذا قلنا: «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين»، فعلينا أن نصدّق بها بقلوبنا، وأن لا يكون لدينا أيّ أملٍ أو اعتقادٍ سوى بالعون والعناية الإلهيّين. وإذا أظهرنا المسكنة والمذلّة بظاهرنا بين يدي اللّه، وهبطنا إلى السجود، فعلينا أن نبعد عن ساحة القلب والباطن كلّ أشكال الإنّيّات والأنانيّات وأن نكون في الواقع عبادًا مسلّمين للّه تعالى تسليمًا محضًا.

---

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٤.

أسطورة أم واقع؟

إنّه لمن المؤسف أن نكون بعيدين عن مثل هذه المسائل، مثل هذا البعد إلى الدرجة التي نظنّ فيها أحيانًا أنّ مثل هذه الكلمات مجرّد أساطير وأضغاث أحلام لا أكثر. نتصوّر أنّها أشعارٌ قد أنشدها أشخاص هائمون بطبعهم، لكنّ هذه المسائل هي وقائع قد تمّ التصريح بالكثير منها في القرآن الكريم ذاته وفي روايات ومعارف أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وبالنسبة لي، حين تأمّلت مليًّا بمعنى هذه الآية الشريفة لأوّل مرّة، ذُهلت كثيرًا والتفتّ إلى مدى بعدنا عن القرآن ومعارفه. فاللّه تعالى يقول في كتابه العزيز حين يصف المؤمنين: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[1].

فحين يُتلى القرآن على المؤمنين الحقيقيّين وعلى الذين دخل الإيمان قلوبهم، فإنّهم يخرّون بوجوههم إلى الأرض ويبكون. ولم يكن هناك من علّم هؤلاء القيام بهذا العمل، بل كان ردّة فعلٍ طبيعيّة لوقوعهم تحت تأثير القرآن، وكلّما تُلي القرآن عليهم زادهم خشوعًا. أنا لم أشاهد طوال حياتي، وقد بلغت حتى الآن أكثر من ستين عامًا، شخصًا واحدًا تحصل له مثل هذه الحالة عند سماعه لآيات القرآن الكريم. وبالطبع، لقد شاهدت أشخاصًا يذرفون الدمع أثناء سماع القرآن، ولكن لم أشاهد لحدّ الآن من يخرّ إلى الأرض ويعفّر وجهه بالتراب ويبكي.

وفي آيةٍ أخرى، شبيهةٍ بهذه الآية، يقول تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[2].

فإلى من نزل هذا القرآن؟ ولأيّ هدف ذكر هذه الحالات والأوصاف للمؤمنين؟ فهل كان المُراد من ذلك أن نعلم أنّه كان هناك مؤمنون يتمتّعون بمثل هذه الخصال؟ ألا ينبغي أن تتحقّق هذه الصفات فينا؟ ألم يكن ينبغي أن نشاهد شخصًا واحدًا من بين كل هؤلاء المؤمنين الذين نراهم من حولنا يتّصف بمثل هذه الحالة؟!

---

(١) سورة **الإسراء**، الآيات ١٠٧ - ١٠٩.

(٢) سورة **مريم**، الآية ٥٨.

فإنّ هذا الأمر شاهدٌ على مدى بعدنا عن مُثُل القرآن والسُنّة. ففي الماضي كان هناك العديد من الأفراد الذين يتّصفون بمثل هذه الحالة. أمّا في هذه الأيّام حيث ازدادت زخارف الدّنيا وزبرجها، والتنافس والتكالب على المادّيّات قد اشتدّ، فإنّنا قلّما نشاهد مثل هذه الحالات. وفي يومنا هذا قد وصل الأمر إلى حالةٍ أنّه إذا بكى أحدٌ أثناء الصّلاة أو دمعت عيناه أثناء الاستماع إلى آيات القرآن الكريم، لاعتُبر ذلك بدعةً في الدّين وعدّوا عمله هذا غير مبرّرٍ وفاقدٍ للمعنى، فهل يمكن أن نعتبر ذاك الأمر الذي جاء بصريح العبارة في القرآن نفسه بدعةً في الدين؟! فإذا كان صريح الآية القرآنيّة شيئًا غير الدين فماذا سيكون الدين، وإذا لم يكن بالإمكان تحديد الدين وصفات المتديّنين والمؤمنين عن طريق القرآن الكريم، فعن أيّ طريقٍ يمكن الوصول إلى هذا الأمر المهم؟ يقول اللّه تعالى في كتابه الكريم، وهو يريد أن يفهمنا عظمة معاني القرآن ومفاهيمه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[1].

فذاك القلب الذي لا يؤثّر القرآن فيه، ولا ينبض على أثر سماع القرآن هو أشدّ قسوةً من الحجر، لأنّ القرآن إذا نزل على جبلٍ فإنّ هذا الجبل سيتصدّع، لكنّ قلوب البعض (بل الكثير) من الناس أصبحت قاسيةً إلى الحدّ الذي لا توجد آيات القرآن فيهم أيّ تغييرٍ أو تحوّل، بل لا تترك فيها أثرًا بمقدار رأس إبرة! وحقًّا نقول: ما الذي حدث حتّى أصبحنا باردين وفاقدين للروح مقابل الآيات الإلهيّة؟ ألم يأنِ الوقت لتجديد النظر بوضعنا القلبيّ والروحيّ عسى أن نأنس قليلًا بذكر اللّه وآياته؟ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[2].

ألم يحن وقت الخشوع للمؤمنين لكيلا يكونوا كالذين قست قلوبهم على مرّ الزمن بحيث توقّفت أعينهم عن ذرف قطرةٍ واحدةٍ من الدمع؟ ألم يأنِ وقت الخروج من حالة الجمود والبرودة هذه، التي تعتري القلوب؟ فما أكثر الذين يذوب جليد قلوبهم وأرواحهم على أثر الاستماع إلى آيات القرآن، فيرجعون ويثوبون إلى اللّه، فلماذا لا نكون من هؤلاء؟

---

(١) سورة **الحشر**، الآية ٢١.

(٢) سورة **الحديد**، الآية ١٦.

إنّ قصّة الفضيل بن عيّاض (قاطع الطرق) معروفةٌ، ففي إحدى الليالي وأثناء استعداده للسرقة وحين تسلّق جدار أحد بيوت الناس سمع صاحب البيت يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ..﴾ وقد أحدثت هذه الآية هزةً عميقة في قلب فُضيل وأوجدت فيه انقلابًا كاملًا فتاب لتوّه وهو يقول: «أجل، لقد حان الوقت». لقد تبدّل فضيل بفضل هذه الآية إلى الدرجة التي أصبح معها من أولياء اللّه! حقًّا، ألم يحن الوقت لمفاهيم ومعاني الألفاظ وأذكار الصلاة بألسنتنا أن تعبر من أذهاننا وتدخل قلوبنا؟ ألم يحن الوقت لأن يزداد حضور القلب لدينا في الصلاة، ولا نتساهل به إلى هذا الحدّ؟ أملنا أن تشمل التوفيقات الإلهيّة أحوالنا على هذا الطّريق.

طرق تحقيق حضور القلب في الصلاة

أ- التفكّر بفوائد حضور القلب في الصلاة

إحدى الطرق الموجودة لأجل معالجة هذه المشكلة هي التفكّر في فوائد توجّه القلب وحضوره في الصلاة والتأمّل بها، وبالأضرار الناشئة عن الغفلة عنها؛ ذلك لأنّ الإنسان لو صدّق بفائدة أيّ عملٍ وأدرك مدى الأضرار الكبيرة والكثيرة الناشئة عن تركه، فإنّه سيسعى بجدّيّةٍ تامّة للقيام به والاهتمام بأدائه. والواقع أنّنا لا نؤمن ولا نصدّق بفوائد الاهتمام بالصلاة والأضرار الناشئة عن عدم التوجّه إليها.

وبالالتفات إلى محدوديّة الذّهن، ومن خلال تشبيه الأمر بالمعاملات الدنيويّة، فقد يتّضح لنا هذا المطلب إلى حدٍّ ما. فافرضوا أنّ تاجرًا يمكنه أن يجري إحدى معاملتين من خلال رأسمال معيّن، وعلى سبيل المثال، فلنفرض أنّ المعاملة الأولى سيكون ربحها حوالي المليون، أمّا المعاملة الثانية فإنّها ستجلب له مليارًا، فلو اختار المعاملة التي تجلب له مليونًا من الربح، فكم هو كبير الضرر الذي سيتسبّب به لنفسه، وكم سيتحسّر بعدها! بالطبع، لقد أشرنا سابقًا إلى أنّ الفارق بين الصلاة بتوجّه والصلاة من دون توجّه هو أمرٌ خارج الأرقام والحسابات، ولكن على فرض أردنا أن نبيّن هذا الفارق باستخدام الأعداد والأرقام يكون الأمر على هذا النحو وكأنّنا نستطيع أن نحصل على مئة مليار مقابل خمس دقائق من هذه الصلاة، لكنّنا مع ذلك اقتنعنا بمئة! فهل يوجد خسارةٌ أكبر من هذه؟! أو على سبيل المثال، نستطيع أن نحصل مقابل صلاة تستغرق ٥ دقائق على الماس أو اللؤلؤ بقيمة مئات

الملايين، لكنّنا رضينا بزجاجةٍ لا قيمة لها على الإطلاق! والآن حين نريد أن نقول «اللّه أكبر»، فإنّ كلا الطريقين مفتوحان أمامنا، ونحن في كلّ يوم، بل في اليوم الواحد نكون عدّة مرّات أمام هذا الاختيار، ومع ذلك فإنّنا نستبدل صلاتنا بتلك القطعة الزجاجية أو ذلك المال الفاقد للقيمة!

فلو فكّرنا قبل الصلاة بهذا الأمر، وهو أنّ ثواب صلاتنا يمكن أن تكون جوهرة من الماس، يعجز كل بائعو المجوهرات في العالم عن تحديد قيمتها، فلعلّنا نعود إلى رشدنا قليلًا ولا نبيع صلاتنا بثمنٍ بخس! فلو أنّنا أدركنا القيمة الواقعيّة لصلاتنا، فإنّنا سنمسك بزمام قلوبنا ولن نسمح لها أن تحلّق في كل ناحية وصوب. فلو كنّا حقًّا لا نستطيع الآن أن نقوم بهذا العمل في كل أجزاء الصلاة. ومثل هذا الأمر حتمًا لن يكون سهلًا علينا في بداية العمل. على الأقل، فلنعزم على تأدية ذكرٍ واحد في صلاتنا اليوم بحضور قلب وتوجّهٍ كامل!

فنحن الآن غير ملتفتين إلى مدى الخسائر الهائلة التي تتكبّدها بسبب صلاة الغفلة التي نؤدّيها، ولكن يومًا ما سنصل إلى هذه القضيّة حتمًا. هناك، سنعضّ على الإصبع ندامةً ونطلق آهات الحسرة. ذاك هو يوم الحسرة التي تحدّث عنه القرآن: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾[1].

أجل، إنّ عذاب الحسرة هو أشدّ إيلامًا من عذاب جهنّم!

وعلى أي حال، فإنّ من الطرق التي يمكن أن تعيننا على المزيد من حضور القلب في الصلاة هي أن نتوجّه قبل الصلاة بعدّة دقائق إلى فوائد الصلاة المعنويّة والتي يحضر فيها القلب ونتفكّر في تبعات وأضرار الصلاة الفاقدة للتوجّه.

ب- احتمال كونها آخر صلاة

ومن الأمور الأخرى التي يمكن أن تعيننا على المزيد من حضور القلب في صلاتنا وقد أشير إليها أيضًا في الروايات هو التوجّه إلى هذه القضيّة وهي احتمال أن تكون صلاتنا الآن هي آخر صلاة نؤدّيها. وقد قال النبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في روايةٍ

---

(١) سورة مريم، الآية ٣٩.

ينصح فيها أحد أصحابه: «صَلِّ صَلاةَ مَوَدِّع، فإنّ فيها الوصلة والقربى»[١]؛ أي إذا أردت أن تصلّي فصلّي كأنّك تصلّي آخر صلاةٍ في حياتك، واجعل هذه الصّلاة صلاة وداعك.

وحقًّا، من أين لنا أن نعلم أنّنا سنعيش بعد هذه الصّلاة مدّةً كافيةً لبلوغ موعد الصلاة الأخرى؟! فحين نشرع في الصلاة، لا يمكن أن نكون على يقينٍ بأنّنا سنتمكّن من إنهائها بذاتها، فكيف لنا أن نأمل بإدراك الصلوات الأخرى! فلو فكّر الإنسان أنّ فرصته في الحياة تساوي مقدار صلاةٍ واحدة، وأنّه بمجرّد أن ينهي «السلام عليكم ورحمة اللّه بركاته»، سوف يأتي حضرة عزرائيل ويقبض روحه، فإنّه سيصلّي حتمًا بصورةٍ مختلفةٍ تمامًا عمّا سبق. فلو علم أنّ هذه الصّلاة ستكون آخر صلاةٍ له، فإنّه سيؤدّيها بحالةٍ مفعمةٍ بالإنابة والتضرّع للّه تعالى. فإنّ مثل هذا الاحتمال بأن تكون صلاتنا هي آخر صلاة لنا موجودٌ في كلّ صلاةٍ. فحريٌّ بنا أن نتوجّه في كلّ صلاةٍ إلى اللّه ونجعلها صلاة توبةٍ واستغفارٍ واستغاثة. ولو جلس الإنسان قبل كلّ صلاةٍ وفكّر لعدّة دقائق ولقّن نفسه أنّ هذه الصّلاة لعلّها ستكون آخر صلاةٍ يؤدّيها في هذه الدّنيا، فإنّ هذا الدافع سيوجد في نفسه، بحيث سيركّز حواسه بصورةٍ أفضل. وكمثالٍ على ذلك، إذا أردتم أن تسافروا وكان سفركم طويلًا ومحفوفًا بالمخاطر، فماذا تفعلون؟ وكيف تودّعون أهل بيتكم وأصدقائكم وأقاربكم؟ فقد شاهدنا مثل هذا المشهد كثيرًا في سنوات الدفاع المقدّس الثمانية، فقد كان وداع أولئك الذين كانوا يتوجّهون إلى الجبهات مختلفًا اختلافًا كاملًا عن وداع الأسفار الأخرى، ففي مثل هذا الوداع كان الآباء والأمّهات يحتضنون أبناءهم بصورةٍ مختلفة تمامًا، وكذلك كان وداع المجاهدين في ليالي العمليّات مفعمًا بالأجواء العجيبة ويسوده جوٌّ مختلفٌ تمامًا. وكلّ ذلك كان بسبب أنّ أمل الرجوع واللقاء مجدّدًا كان ضعيفًا جدًّا.

فلو أدرك الإنسان في صلواته مثل هذا الشعور، فإنّ حال صلواته وجوّها سيكون مختلفًا بصورةٍ تامّة. ولو أدرك الإنسان مثل هذا الشعور وهو أنّه ستكون هذه المرّة آخر مرّةٍ يتحدّث مع اللّه، وستكون هذه المرّة هي الأخيرة التي يسجد

---

(١) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦هـ)، الجزء ٢، الصفحة ١٦٣٩.

فيها بين يديه فلا شكّ أنّه سيصلّي بطريقة مختلفة. فالصلاة الوداعيّة ستكون بأعينٍ دامعة وصفاءٍ ملكوتيّ مثل وداع المجاهدين في ليالي العمليّات، ولو تحقّق هذا الأمر فإنّ الإنسان سيسعى للاستفادة القصوى والمُثلى من مثل هذه الصلاة. وعلى كلّ حال، فإنّ هذا هو الطريق الثاني الذي يمكن للإنسان بواسطته أن يزيد من توجّهه وحال حضوره في الصلاة.

ج- الصلاة ميعاد اللقاء مع أعظم العظماء

ومن الأبعاد الأخرى التي يمكن أن تعين الإنسان على المزيد من التوجّه في الصلاة، هو أن يتفكّر إلى حضرة من ذهب، وأيّ عظيم سيقابل، فكلّما ازداد توجّه الإنسان إلى هذا المعنى سيزداد خضوعه وخشوعه وتوجّهه في صلاته. وعلى الإنسان أن يلتفت من يخاطب في صلاته، وهو الذي يطّلع على باطنه ولا تخفى عليه أدنى خواطره الذهنيّة والقلبيّة. فلو توجّه الإنسان إلى هذه الحقيقة فإنّه لن ينشغل بما سيقوله ويدرّسه ويكتبه من شيكات ومعاملات عند التلفّظ بـ «اللّه أكبر» وقراءة الحمد والسورة، بل سيخجل من أن يخاطب خالقه وقلبه في مكانٍ آخر، وذلك لأنّه يعلم بأنّ اللّه مطّلعٌ على كل ما يخطر في قلبه وذهنه وهو محيطٌ به. ولا شكّ بأنّ الوصول إلى مثل هذه الحالة يحتاج إلى التمرين والتكرار.

يجب أن نصدّق بأنّ اللّه حاضرٌ وناظرٌ دومًا وفي كلّ مكان، ولا تخفى عليه خافيةٌ من حركاتنا وسكناتنا، ومن أجل أن يتحقّق هذا التصديق في نفوسنا يمكننا أن نجلس في غرفةٍ قد وُضع على بابها ستارة، ولا يوجد فيها أحدٌ سوانا، فنجلس ونتصوّر أنّ هناك شخصٌ يقف خلف الستارة، وهو ينظر إلى أعمالنا وسلوكنا، بحيث أنّه لا يمكننا أن نشاهده أو نراه لكنّه يرانا بصورةٍ تامّة ويراقبنا، فهل ستكون أعمالكم وتحرّكاتكم في مثل هذه الحالة مثل لو أنّه لم يكن لديكم مثل هذا التصوّر؟ حتمًا، لن يكون الأمر على حدٍّ سواء. ولليقين أيضًا دوره، فلو احتمل الإنسان أنّ هناك من يقف خلف الستارة ويراقبه فإنّه لن يتصرّف كيفما اتّفق. حتّى لو كان هذا الإنسان في محضر طفلٍ صغير غير بالغ، لكنّه يستطيع أن يميّز بين القبيح والحسن، فإنّه سيجتنب الكثير من الأعمال القبيحة وحتى المحلّلة منها.

ينبغي أن نتدرّب على مثل هذه الحالة داخل الصلاة. فلو أنّنا شعرنا أثناء

الصلاة بحضور اللّه بالحدّ الأدنى بمثل ما نشعر به بمحضر إنسانٍ عاديّ فسوف تختلف صلاتنا جدًّا عمّا هي عليه، فما بالك لو شعرنا بحضور اللّه من مقام ألوهيّته! في الحدّ الأدنى، فلنعطِ لحضور اللّه ذاك المقدار من الاعتبار الذي نعطيه للشخص العاديّ الذي يراقبنا وينظر إلينا من خلف الستارة! فلو كنّا نعتقد بحضور اللّه بهذا المقدار، فإنّ حضورنا القلبيّ سوف يزداد. ولو أنّنا فكّرنا بشأن هذه القضايا لعدّة دقائق قبل الشروع في الصلاة وهي أنّنا سوف نذهب لمقابلة ذاك الذي يسمع صوتنا ويرانا ومطّلع على خواطر قلوبنا وأذهاننا، فإنّنا سنعيش حالةً وجوًّا مختلفًا أثناء الصلاة.

وفي الإجابة عن سؤال أبي ذر: ما الإحسان؟ قال الرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «الإحْسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللّه كأَنَّكَ تَراهُ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإنَّهُ يَراكَ»[1].

ينبغي لنا أثناء أداء الصلاة، أن نعيش المحادثة المباشرة، لا أن نتصوّر بأنّنا نتحدّث إلى شخصٍ غائب. يجب أن ندرك حضور اللّه بكلّ وجودنا وأن نرى بأنّ اللّه حاضرٌ. وقد ورد بشأن أحوال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه كان ذات يوم يؤدّي صلاةً مستحبّة. وأثناء قراءة الحمد والسورة كان يكرّر إحدى الآيات إلى أن غشي عليه! وحين سُئل عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا بن رسول اللّه! ما هذه الحالة التي رأيناها منكم؟ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: حين وصلت إلى هذه الآية بتّ أكرّرها حتى كأنّني سمعتها من المتكلّم بها![2]. صحيحٌ أنّهم هم أئمّة ومعصومون، لكنّ التجارب أثبتت أنّ الوصول إلى مثل هذه المقامات أو ما يقاربها هو أمرٌ ميسّرٌ لكلّ التلامذة والمتربّين الحقيقيّين على أيديهم. وأولئك العظماء الذين تحقّقوا بمثل هذه الحالات من خلال العمل والسير على هذا طريق ونهج أولئك العظماء، ليسوا قلّة.

إنّ الوصول إلى أيٍّ من المقامات الروحيّة والمعنويّة يتطلّب العمل والتمرين

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ١٧٩٩.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨١، الصفحة ٢٤٧. نص الرواية: رُوِيَ أَنَّ مَوْلاَنَا جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ يَتْلُو الْقُرْآنَ فِي صَلاَتِهِ فَغُشِيَ عَلَيْهِ! فَلَمَّا أَفَاقَ سُئِلَ مَا الَّذِي أَوْجَبَ مَا انْتَهَتْ حَالُكَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ مَا مَعْنَاهُ: مَا زِلْتُ أُكَرِّرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ حَتَّى بَلَغْتُ إِلَى حَالٍ كَأَنِّي سَمِعْتُهَا مُشَافَهَةً مِمَّنْ أَنْزَلَهَا.

وتهيئة المقدّمات، خصوصًا تلك المقامات التي تُعدّ من أعلى مراتب التكامل الروحيّ والمعنويّ. ففي هذا المجال، إنّ إحدى المقدّمات هي أن نخصّص بضع دقائق قبل الصلاة للتأمّل في هذا الأمر، بدل أن نأتي مباشرةً من مشاغلنا ونقول «اللّه أكبر» ثمّ نبدأ بالصلاة! فلكي نمسك بزمام قلوبنا نحتاج إلى التمرين والتركيز. إنّ الصلاة تعني المقابلة المباشرة والمحادثة مع اللّه تعالى عن قرب. يجب أن نكون على يقين بأنّ اللّه يسمع كلامنا ويتوجّه إليه، وما هو أعلى من ذلك، أنّه مطّلعٌ على قلوبنا وبواطننا. فلو كانت قلوبنا أثناء الصلاة في محلٍّ آخر، فسوف يكون حالنا كالذي يدير ظهره للشخص الذي يتحدّث معه.

فلو أردتم أن تتحدّثوا إلى صديقٍ حميم، خصوصًا ذاك الشخص الذي تتعاملون معه بأدبٍ واحترام فهل تديرون ظهوركم له حين تتحدّثون إليه؟ إنّ هذا الفعل قبيحٌ جدًّا وهو في منتهى قلّة الأدب. وفي الصلاة أيضًا، فإنّنا أيضًا نكون في حالة المحادثة مع اللّه، فلو كانت قلوبنا متوجّهةً إلى غيره، فسوف يكون أمرنا تمامًا كالذي أدار ظهره للّه وهو يريد أن يتحدّث إليه. ولو رجعنا إلى أنفسنا وثبنا إلى رشدنا وتأمّلنا سنجد أنّ هذا الأمر يُعدّ منتهى قلّة الأدب والوقاحة. لأجل ذلك، جاء في بعض الروايات أيضًا ما مضمونه: أما يخاف الذي يحوّل وجهه في الصلاة أن يحوّل اللّه وجهه إلى وجه حمار؟![1]. أي أنّ ذاك الذي لا يتوجّه إلى اللّه أثناء الصلاة يستحق مثل تلك العقوبة، وهي تبديل ومسخ وجهه من الصورة الإنسانية إلى الصورة الحماريّة. بعبارةٍ أخرى، إنّ الذي لا يلاحظ أدب الحديث والمخاطبة مع اللّه، ويدير ظهره للّه أثناء مخاطبته، فهو يعبّر عن هذه الخصلة والخُلُق الحيوانيّ، وذلك لأنّ الحيوان لا يُدرك أدب الحضور والمحادثة، وحين تتحدّثون معه فإنّه يبقى راتعًا في عالمه أو منشغلًا بمعلفه!

تحصيل حالة الخشوع في الصلاة

من العوامل الأخرى للاستفادة من روح الصلاة إدراك حالة الخشوع فيها. وقد أكّد القرآن الكريم على الخشوع في الصلاة فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨١، الباب ١٥، الرواية ٣، الصفحة ٢١١.

هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[١].

وفي موضعٍ آخر يقول تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[٢].

أ- مفهوم الخشوع

يصعب إيجاد كلمة رديفة لكلمة «الخشوع» في اللغة الفارسية توضّح كامل معناها. ولعلّ دراسة موارد استعمال هذه الكلمة في القرآن يمكن أن يعيننا على إيضاح مفهومها بصورةٍ أفضل.

من بين الموارد التي استُعمل فيها هذا المفهوم في القرآن الكريم ما جاء في مورد الصوت. فلأجل بيان خصائص وأحوال يوم القيامة، يقول القرآن الكريم: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[٣]؛ ففي يوم القيامة تظهر هيبة اللّه وعظمته تعالى لهذا لا يُسمع سوى ذلك الهمس والصوت الخفيف. ففي ذلك اليوم، كلّ شخصٍ سيقول شيئًا، ولكن حيث أنّ حضور اللّه يكون مهيمنًا على الأجواء، فلا يقدر أحدٌ على الحديث بصوتٍ مرتفع من شدّة عظمة وجود اللّه، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ فلا يوجد من يقدر على الحديث بصوتٍ مرتفع، وهذا هو خشوع الأصوات الذي ذكره القرآن الكريم (أي عدم صدور الصوت من الحنجرة بصورةٍ صحيحة، والعجز عن التكلّم بصورةٍ محكمة).

ومن الموارد الأخرى التي ذُكر فيها تعبير الخشوع في القرآن الكريم، هو خشوع الوجوه حيث يقول اللّه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾[٤]

ويظهر أنّ مصداق هذه الآية الشريفة هو وجوه الكفّار والمجرمين. ففي يوم القيامة تخشع وجوه الكفّار والعصاة[٥].

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ١-٢.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٤٥.

(٣) سورة **طه**، الآية ١٠٨.

(٤) سورة **الغاشية**، الآية ٢.

(٥) هناك موارد أخرى استُعمل فيها هذا اللفظ في القرآن الكريم وهي خارجة الآن عن مسار بحثنا. وما =

لأجل إدراك مفهوم الخشوع وتصوّر هذه الحالة، يجب أوّلًا أن نتوجّه إلى أنّ الخشوع ليس حالةً تصنّعيّة أو تعمّليّة. فمن الممكن للإنسان أن يتمكّن من القيام بعملٍ يكون بحسب الظاهر في وجهه وبدنه حالةً من الخشوع، ولكنّ هذا الخشوع لن يكون واقعيًّا، لأنّ الخشوع الحقيقيّ ينبع من القلب. فينبغي قبل أي شيء أن يخشع القلب، ومن ثمّ تسري حالة الخشوع هذه إلى الأعضاء الظاهريّة والحركات كما يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

وهو عتابٌ حول الوقت الذي ينبغي أن يصل فيه المؤمنين إلى حالة الخشوع بذكر اللّه.

وبحسب تعبير القرآن الكريم فإنّ إحدى خصائص هذا الكتاب الشريف هو أنّ الذين يكونون على الفطرة الصافية والمستقيمة إذا سمعوا القرآن فإنّ جلودهم تقشعر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[2].

بالطبع، إنّ هذه الحالة هي حالةٌ آنيّة ولا تستمر لكنّها تحصل في لحظةٍ ما وتنتهي. أمّا كيفيّة ظهور هذه الحالة، فيجب على علماء النفس أن يوضّحوها. فهذه الحالة هي أمرٌ شبيهٌ بردّات الفعل غير الإراديّة التي نقوم بها تجاه المحرّكات الطبيعيّة. فإذا صدر صوتٌ مرتفعٌ جدًّا من الطبيعيّ أن يهتزّ الإنسان من مكانه ويتحرّك، فهذه حالة لا إراديّة وتُعدّ ردّة فعلٍ طبيعيّة. وبشأن بعض الإدراكات يكون الأمر على هذه الشاكلة، حيث يقشعر بدن الإنسان ضمن ظروفٍ خاصّة وتحت تأثير إدراكاتٍ معيّنة، بنحوٍ لا إراديّ. ومن البديهيّ إذا لم تحصل مثل هذه الحالة للإنسان فلا يمكنه أن يدرك واقعها، لكنّ القرآن يقول إنّ هناك أشخاصٌ تحصل لهم هذه الحالة على أثر الاستماع إلى القرآن.

= أردناه هنا هو أن يتّضح مفهوم الخشوع إلى حدٍّ ما من خلال ذكر بعض موارد استخدام هذه المفردة في القرآن.

(١) سورة **الحديد**، الآية ١٦.

(٢) سورة **الزمر**، الآية ٢٣.

ولأجل تقريب الأمر إلى الذهن والتشبيه، افرضوا أنّ إنسانًا دخل منزلًا وهو يظنّ أنّه لا يوجد فيه أحد فيخلع لباسه ويتصرّف من دون تكلّف وبمنتهى الراحة ويأكل ويشرب ويتمدّد، وبينما هو كذلك يسمع من الداخل صوتًا بصورةٍ مفاجئة، فمن الطبيعيّ أن تحصل له حالة من الخوف بمجرّد سماع هذا الصوت. فيقول في نفسه إنّه لم يكن هناك أحد في المنزل، فمن أين صدر هذا الصوت؟ ولأنه كان مطمئنًّا اطمئنانًا تامًّا لعدم وجود أحد في المنزل، فإذا فُتح الباب بصورةٍ مفاجئة ودخل منه شخص فستنتابه حالة من الخوف العابر. ومثل هذه الحالة الخاصّة لا يمكن وصفها، وما لم تحصل للإنسان فإنّه لن يدركها. وهذه الحالة أمرٌ عاديّ وردّة فعلٍ طبيعيّة على أي محرّكٍ محيط. والآن إذا تبيّن له أنّ الذي دخل من الباب هو أحد أفراد الأسرة فإنّه سيعود مباشرةً إلى حالته السابقة وتزول عنه حالة الخوف تلك.

يقول القرآن إنّ الأثر الطبيعيّ للاستماع إلى آيات القرآن بالنسبة لأولئك الذين ما زالوا على فطرتهم الطبيعيّة والأوليّة هو على هذه الشاكلة، فبمجرّد استماعهم لآيات القرآن، فإنّهم يُصابون بنوعٍ من الصعقة التي تؤدّي إلى قشعريرة جلودهم: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، ولأنّهم مؤمنون ويعرفون اللّه، فإنّهم بعد تلك اللحظات الأوليّة حين يرون أنّه اللّه الذي يعرفونه هو الذي يحدّثهم، فإنّهم يرجعون مباشرةً إلى تلك الحالة الطبيعيّة ويستشعرون الطمأنينة والأمان: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1].

لا أنّهم لا ينزعجون فحسب، بل يأنسون باللّه وتسيطر عليهم حالة من الطمأنينة الخاصّة وتسري في أرواحهم وقلوبهم. وكأنّهم في البداية كانوا يتصوّرون أنّه شخصٌ غريبٌ، لكنّهم سرعان ما أدركوا أنّه ذاك المحبوب الرحيم ولذلك فإنّهم يطمئنّون ويسكنون. بالطبع، هناك في المقابل أشخاصٌ إذا ذُكر اللّه عندهم وشعروا بحضوره، فإنّهم ينزعجون ويقلقون لأنّهم كالأجانب مع اللّه. يقول القرآن الكريم بشأن هؤلاء: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾[2].

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٢٣.

(٢) سورة **الزمر**، الآية ٤٥.

أمّا أولئك الذين يعرفون اللّه وأرواحهم تمتلك الاستعداد للأنس به، فإنّهم بعد تلك الحالة الأوليّة إذا أدركوا أنّهم في محضر اللّه، وبحسب درجة معرفتهم وبمقدار إدراكهم لعظمة ربّهم، تحصل لهم حالة الخشوع والانكسار.

ومن باب التشبيه وتقريب الأمر إلى الذهن بصورةٍ أفضل، افرضوا أنّ هناك جنديًّا يغفو قليلًا في وقت عمله ظنًّا منه أنّه لا يوجد أحد، وفجأة وما إن يفتح عينيه حتى يرى قائده فوق رأسه. ماذا تتصوّرون أنّه سيحصل لهذا الجنديّ في مثل هذه الحالة؟ لا شكّ أنّه سينفعل بشدّة ويخجل ويكون خجله ممتزجًا بالخوف. فإنّ هيبة وعظمة القائد الأعلى ستجعله يتخبّط ولا يعرف يده من رجله؛ وفي الوقت نفسه، فإنّه سيخجل من أنّه نام ومدّ قدمه أمام القائد. وكلّما كانت رتبة قائد هذا الجنديّ أعلى وأكبر فسوف تكون حالة التخبّط والخوف الممتزجة بالحياء والخجل لديه أشد وأقوى. فهناك ارتباطٌ مباشر ما بين إدراك عظمة ذلك الشخص وشدّة الانفعال. وللمؤمنين مثل هذا الشعور مقابل اللّه. فإنّ درجة خشوعهم وخضوعهم ترتبط بمستوى إدراكهم ومعرفتهم لعظمة اللّه. وعلى أيّ حال، فإنّ مثل هذه الحالة الانفعاليّة التي ذكرناها في هذا المثال قد تحصل لأيّ إنسانٍ في هذه الحياة بنحوٍ أو بآخر، وهي أشبه وأقرب الأحوال إلى حالة الخشوع.

فهناك تلازمٌ بين الخشوع وحالة الذهول عن الذات، وهنا أيضًا نجد أنفسنا مضطرين للاستفادة من مثال لأجل تقريب المسألة إلى الذهن وشرح وتفصيل هذه الحالة.

افرضوا شخصًا يعرّف نفسه على أنّ لديه موقعيّة وشأنيّة، وعلى أنّه من الناحية العلميّة مثلًا حاصل على درجة الدكتوراه أو أنّه أستاذٌ جامعيّ. وبعد مدّةٍ من نظر الناس إليه بهذه النظرة، تبيّن فجأة أنّ ادّعاءه غير صحيح، لا أنّه ليس لديه شهادة الدكتوراه فحسب، بل هو أمّيّ. ففي مثل هذه الحالة، سوف تنتاب الإنسان مباشرةً حالة من الانفعال الشديد. ومن علائم هذه الحالة هي أن يبهت لونه وينهار وتجري الدموع من عينيه و...

ويوجد فارقٌ بين الخشوع للّه، والخشوع للناس. فالخضوع والخشوع مقابل الناس هو أمرٌ مؤلم، يجلب معه العذاب للإنسان وهو أمرٌ شديدٌ عليه، أمّا إذا حصلت هذه الحالة للإنسان بين يدي اللّه فإنّها ستكون مصحوبةً باللذة. يقول

بعض العظماء إنّ تلك اللذة التي يحصل عليها الإنسان جرّاء مثل هذه الحالة بين يدي اللّه، حيث تنهمر دموعه بسبب هذا الخشوع ستكون أعلى وألذ من جميع لذائذ هذه الدنيا بحيث يتمنّى لو لم يكن يمتلك أي شيء آخر سوى هذه الحالة وأن تدوم إلى الأبد.

أجل، هناك أشخاصٌ مستعدّون لاستبدال جميع لذّات الدنيا بلحظةٍ واحدةٍ من هذه اللحظات، وكلّ ذلك لأنّ الخشوع بالأساس هو أمرٌ فطري، ولأن فطرة الإنسان تقتضي أن لا يرى الإنسان لنفسه استقلالًا أو هويّةً ذاتيّةً مقابل اللّه، وهو يرى كلّ الوجود بما يشمل نفسه مرتبطًا باللّه بل عين التعلّق والربط به.

مهما امتلك الإنسان من صفات، كالعلم والقدرة والجمال والكمال، فإنّ ذلك كلّه شعاعٌ من كمال حضرة الحقّ وجماله وعلمه وقدرته المطلقة. ولو أدرك الإنسان هذه الحقيقة ووصل إليها بالعلم الحضوريّ فسوف يخشع حتمًا، وكلّما خشع أكثر ارتقى درجةً ومرتبة.

ب- الخشوع، نفي الأنانية

ولكن كيف يكون انكسار القلب وبأي معنى؟ إنّ حالة انكسار القلب تحدث للإنسان حين يتعرّض للابتلاء والاحتياج الجدّيّ والشديد، وحين تقصر يده عن كلّ شيء ويبأس من جميع الناس. هناك ينكسر قلب الإنسان. لكنّ هذه الحالة ليست بالخشوع، لأنّ الخشوع أمرٌ أعلى من ذلك وأرقى، فالخشوع يحصل حين تنكسر قلعة «الأنانيّة» و«الإنيّة» وتتهاوى.

يرى جميعنا لنفسه شخصيّة وهويّة مستقلّة، بعبارةٍ أخرى إنّها «الأنانيّة» و«الإنيّة». ومن وجهة نظر الأبحاث الأخلاقيّة والمعارف الإسلاميّة فإنّ أكبر مشاكلنا ونقصنا ناشئ عن هذه القضيّة بعينها. ومثل هذه المشكلة إنّما تصل إلى أوجها حين نشعر بـ «الأنانيّة» مقابل الحق المتعال. إنّ وجود هذه الحالة في الإنسان يُعدّ أمرًا قبيحًا حتّى لو كان تجاه الآخرين، لكنّه لا يؤدّي إلى مثل ذلك السقوط العجيب وفقدان القيمة لأعماله. أمّا «الأنانيّة» مقابل اللّه فهي تعني أنّ: «يا ربّي أنت أنت، وأنا أنا!» وهذه الحالة تشكّل أرضيّة ومنشأً الانحرافات وكل أشكال الفساد في الإنسان. ومثل هذه الحالة إذا استمرّت ووصلت إلى أوجها، فإنّ صاحبها يصل إلى

حيث يطبّل قائلًا: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[١] فحين أطلق فرعون هذه الجملة فإنّه كان يظهر منتهى «إنيّته» و«أنانيّته».

أمّا الصّلاة فهي عبارة عن إظهار حالة العبوديّة والتسليم للّه ولحكمه. فالصلاة هي الخضوع لإرادة اللّه وتجاوز إرادة الذات.

يجب على الجميع، وبالأخصّ الشباب، أن يعملوا كثيرًا ليكون مسير حركتهم على أساس الإرادة الإلهيّة، وأن يعوّدوا أنفسهم منذ البداية على أن تكون كل حركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وسلوكيّاتهم باحثة عن الدافع الإلهيّ. ومن جانبٍ آخر، ألّا يكونوا فقط بصدد إصدار الأوامر وإطاعة الآخرين وتقديم الخدمات لهم، بل أن يكون سعيهم من أجل أن يجعلوا أنفسهم أكثر فأكثر في خدمة الآخرين. فلو قام الشاب منذ البداية بتكرار هذين الأمرين والتدرّب عليهما فإنّ روح الفرعونيّة والأنانيّة فيه ستضعف بدل أن تقوى وتشتدّ. فلو سعينا منذ البداية لمعرفة ما هو تكليفنا في كلّ أمرٍ وما الذي يريده اللّه منّا فإنّنا لن نسقط في فخّ الأنانيّة أو نُبلتى بدوّامة ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٢].

ج- الخشوع الظاهريّ والخشوع الباطنيّ

على أيّ حال، إنّ الإنسان، وقبل خضوعه لتربية الأنبياء والمربّين الإلهيّين، يكون في حالٍ من «الإنيّة» و«الأنانيّة»، وعليه أن يفكّر في إصلاح نفسه ومعالجتها فإن لم نراقب هذا الأمر ونعالجه فإنّ سدّ «الأنانيّة» فينا سيصبح منيعًا جدًّا وضخمًا، بحيث لا يمكن تحطيمه بتلك السهولة، ومن الصعب أن يتهاوى بعد ذلك.

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣].

يصل بعض الناس إلى حيث تصبح قلوبهم أشدّ قسوة من الحجارة كما أشار القرآن الكريم، وقد وصف اللّه تعالى قسوة قلوب بني إسرائيل حين قال: ﴿ثُمَّ

---

(١) سورة **النازعات**، الآية ٢٤.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٤٣.

(٣) سورة **الحديد**، الآية ١٦.

﴿قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[1].

إنّ قلوب بعض النّاس تصبح قاسيةً وشديدةً إلى الدرجة التي لا تنهمر من عيونهم دمعةٌ واحدة. فقلوبهم أصبحت أشدّ قسوة من الحجارة وفي المقابل هناك أشخاصٌ تنكسر قلوبهم بسرعة مثل ذلك الجدار الذي يكاد يتصدّع في أي لحظة. وإحدى مراحل ومراتب انكسار القلب هي هذه، حيث يكون جدار قلب الإنسان هشًّا وضعيفًا، وفي بعض الأحيان يكون انكسار القلب أكثر شدّة بحيث أنّ جدار القلب يكون فيه تصدّع عميق. وفي بعض الأحيان، يكون هذا الانكسار من الشدّة بحيث أنّه يشبه ذلك المنزل الذي ينهار دفعة واحدة بسقفه وجدرانه. وفي هذه الحالة، فإنّ جدار أنانيّة الإنسان ينهار دفعة واحدة ولا يبقى له أي أثر، وكأنّه لم يكن هناك بيت ولا جدار. والخشوع الكامل هو تلك الحالة الأخيرة أي تلك الحالة التي تتفتت فيها جدران قلب الإنسان ويصبح كرمادٍ اشتدّت به الريح في يومٍ عاصف. فلو حصلت للإنسان مثل هذه الحالة، وانكسر قلبه وانهار فإنّه شاء أم أبى ومن دون اختيار منه سيظهر أثره على وجهه وظاهره، فيكون صوته على سبيل المثال، ومن دون اختيار في حالةٍ من الانقباض والانكسار، ولو صلّى الإنسان في مثل هذه الحالة، فإنّه سيكون مصداقًا لمثل هذه الآية الشريفة، حيث يقول اللّه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[2].

ليس الخشوع بحيث يتصنّع الإنسان تغيير لحن صوته أثناء الصلاة، أو إحناء رأسه أو رقبته؛ فهذا كلّه تصنّعٌ وتكلّف وليس خشوعًا حقيقيًّا. ولو انكسر القلب في الواقع فإنّ ذلك الجدار لـ «كوني أنا» سيتصدّع، وسينهار سقف بيت الصنم وتظهر آثاره بوضوح وبشكلٍ لاإراديّ في وجه الإنسان وظاهره وسلوكه.

ومن الممكن أن يتطرّق سؤالٌ إلى الذهن وهو: هل من الصحيح أن يصل الإنسان إلى مثل هذه الحالة؟ أولئك الذين لم يعيشوا تجربة الارتباط باللّه يعتبرون

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٧٤.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ١-٢.

هذه الحالة علامة على ضعف الشخصيّة في الإنسان وهم يقولون لو أنّ قلب الإنسان قد انكسر وجرت دموعه واهتزّ قلبه وأصبح صوته خافتًا فذلك دليلٌ على ضعف شخصيّته وضعف أعصابه ونفسه. في المقابل، فإنّ أولئك الذين يعتقدون بوجود اللّه ويعرفون اللّه ويدركون عظمته، يعتقدون بأنّ عدم وجود مثل هذه الحالة، دليلٌ على وجود النقص والمشكلة. أمّا نحن فإنّنا نعتقد أنّ مقتضى فطرة الإنسان من الأساس هو هذا الأمر. فحين يكون الإنسان بذاته لا شيء، ويكون كلّ شيءٍ فيه من اللّه فأيّ حالةٍ كاذبةٍ هي هذه التي يقف فيها ليقابل اللّه؟ وما هو السبب الذي يجعله يبني ذلك الجدار الإسمنتي لـ «كوني أنا» في مقابل ربّه، فالمشكلة والخطأ هو أن يرى الإنسان لنفسه وجود وأنانيّةً في مقابل ربّه.

د- الفرق بين «الخشوع» و«الخوف» و«الخشية»

كما ذكرنا سابقًا، إنّ الخشوع عبارة عن شعورٍ خاصّ بالانكسار والتفتّت والمذلّة التي تحصل للإنسان، وتتصاحب هذه الحالة مع الخشية والخوف. ومن هنا، ولأجل اتّضاح مفهوم «الخشوع» أكثر ينبغي أن نتحدّث حول مفهوم «الخشية» وكذلك «الخوف» والتفاوت بين هاتين الحالتين وارتباطهما ببعض.

ففي القرآن الكريم نقرأ هذه الآية: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[1].

إنّ القرآن بحسب هذه الآية إذا أُنزل على جبلٍ فإنّ ما سيحصل لهذا الجبل هو ذلك الخشوع والتصدّع الذي يظهر إلى درجة التلاشي، وقد استعمل اللّه تعالى في هذه الآية الشريفة مفهومي الخشوع والخشية معًا.

وفي العادة، فإنّ مفهوم لفظ «الخشية» لا يكون واضحًا بالنسبة لنا بالشكل الصحيح. ففي اللغة الفارسية، تُستعمل هذه الكلمة في معظم الموارد متلازمةً مع مفردة «الخوف»، وفي بعض الأحيان أيضًا متلازمةً مع لفظ «الهيبة». فالكثير منّا يتصوّرون أنّ هذه الكلمات الثلاث مترادفة وتعطي المعنى نفسه، في حين أنّ الأمر ليس كذلك. يبدو أنّ كلمة «الهيبة» تُستعمل في العادة بطريقة خاطئة، فنقول على

---

(١) سورة **الحشر**، الآية ٢١.

سبيل المثال في لغتنا الفارسيّة «إنّ لفلان مثل هذه الهيبة»، أو «أنّني قد اعترتني الحالة الفلانية من هيبته»، حيث تنسب الهيبة إلى الشخص المقابل في حين أنّ الهيبة هي حالةٌ تعرض على الشخص الذي يدرك عظمة الطرف المقابل!

وعلى كلّ حال، حين يواجه الإنسان عظمةً مدهشةً ويشعر في مقابلها بالحقارة واللاشيئيّة ستعرض عليه حالة من الانكسار والتلاشي، وهذه هي الحالة التي نقول بشأنها: «لقد انعقد لساني من هيبة فلان ولم أتمكّن أن أنطق بكلمةٍ واحدة». وكما ذكرنا فإنّ «الهيبة» في الواقع هي صفةٌ وحالة تعرض علينا جرّاء إدراك عظمة ذلك الشخص.

وقد تتلازم حالة «الهيبة» مع المعارف والتوجّهات الأخرى أيضًا. فالإنسان بعد إدراك عظمة ذلك الفرد ومعرفة شخصيّته قد يتوجّه إلى هذا الأمر، وهو أنّه قد خالف شخصًا عظيمًا وواجهه بالعصيان وقلّة الحياء. فها هنا، بالإضافة إلى حالة «الخشية» التي حصلت جرّاء إدراك عظمة ذلك الشخص، تظهر حالة «الخشوع» في الإنسان أيضًا. وأحيانًا، بالإضافة إلى هذين الأمرين يتوجّه إلى أنّه يستحقّ العقوبة جرّاء عصيانه ومعاصيه التي ارتكبها بحقّ تلك الشخصيّة العظيمة، وقد أعدّت تلك الشخصيّة أنواع العذاب والعقوبات للعصاة، فها هنا تحصل له حالة «الخوف» بالإضافة إلى حالتي «الخشية» و«الخشوع».

وليس بالضرورة أن تتلازم حالتي «الخشية» و«الخشوع» مع «الخوف» دائمًا، فقد لا تظهران بسبب «الخوف» من العذاب الإلهيّ بل من الممكن أن تحصلا تحت تأثير إدراك العظمة الإلهيّة بنحوٍ صرف. فعلى سبيل المثال المعصية والذنب ليسا مطروحين في مورد الجبل حتى يُقال إنّ الجبل قد خشع واعترته «الخشية» جرّاء الخوف من العذاب الإلهيّ، بل إنّ تصدّع ذلك الجبل قد حصل تحت تأثير إدراك عظمة اللّه.

بناءً عليه، فإنّ ظهور حالة الخشية والذهول عن الذات والخوف في الإنسان في مقابل اللّه تعالى هي أهم من أن تكون نابعة من الشعور بالذنب والخوف من العذاب، بل تشتمل على سببٍ آخر وهو إدراك عظمة اللّه تعالى. وإحدى تلك الحالات التي تعرض على الإنسان هي أنّه قد يبهت لونه ويرتجف بدنه حين يقف مقابل شخصيّة عظيمة جدًّا وتعتريه حالةٌ شبيهةٌ بالخوف، لكنّ هذه الحالة

لا تكون بالضرورة بسبب العذاب والعقوبة، بل يمكن أن تكون من تأثير عظمة تلك الشخصيّة. وقد نُقل في الروايات أنّ الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين كان يتوضّأ كان يرتجف بدنه، ويصفرّ لونه[١]، وقد ورد أيضًا بشأن حضرة الزهراء عليها السلام أنّها حين كانت تقف في محرابها للعبادة كانت ترتجف كلّها وكان اللّه تعالى يقول لملائكته في مثل هذه الحالة: «يا ملائكتي المقرّبين انظروا أَمَتي كيف ترتجف من خشيتي، اشهدوا أنّني سوف أشفع لمحبّيها»[٢].

وعلى أيّ حال، مع هذه التوضيحات التي عرضناها يُعلم أنّ الخشوع قد ينشأ من أسبابٍ مختلفة، فأحيانًا يكون من محض إدراك عظمة المقام الإلهيّ، وأحيانًا بسبب الخجل والحياء من الذنوب التي ارتكبها بحقّ اللّه تعالى، وقد ينشأ أيضًا بسبب الخوف من العذاب والعقاب الإلهيّين.

رابطة المحبّة والخشوع

حين يكون للإنسان محبوبٌ وهو قاصرٌ عن الوصول إليه، ولا يمكنه أن يراه فسوف يعيش حالةً دائمةً من القلق والتوق؛ وقد تصل هذه الحالة إلى أوجها، حين يعلم بأنّ محبوبه يراه ويعلم أخباره وأحواله، بينما هو لا يستطيع أن يرى محبوبه أو ليس لديه خبر عنه. حضرة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حين يتوجّه إلى ذات الحق المقدّس في دعاء عرفة الشريف، يقول: «عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَرَاكَ عَلَيْها رَقيبًا»[٣].

لو أراد الإنسان أن يصل إلى عمق هذا المطلب قدر المستطاع، ينبغي في البداية أن يزيد معرفته باللّه تعالى، ويتعرّف إليه بصورةٍ أفضل. فكلّما تعرّف إلى اللّه، أدرك المزيد من جماله، وفي النتيجة سيزداد عشقه له وتستقر محبّة اللّه في قلبه وتتمكّن. وحين تستقر محبّة اللّه في القلب، فإنّ شعلة الشوق إلى لقائه تستعر فيه وسينفذ صبره توقًا للقاء محبوبه. وهنا حين يقف للصلاة، فإنّ قلبه يخشع على

---

(١) ابن شهرآشوب، **مناقب آل أبي طالب**، تحقيق لجنة من أساتذة النجف الأشرف (النجف الأشرف: مطبعة الحيدرية، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٦م)، الجزء ٤، الصفحة ١٤.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢٨، الباب ٢، الرواية ١، الصفحة ٣٨.

(٣) يمكن أن نفسّر هذه الجملة بصورة خبريّة أي إنّ العين التي لا ترى اللّه مراقبًا لها فهي عينٌ عمياء (غياثي كرماني).

أثر شوق اللقاء، وتعرض عليه هذه الحالة من الخشوع، والسؤال الآن هو: ماذا نفعل من أجل عبور هذه المراحل والوصول إلى هذه الحالات المعنويّة؟

أفضل طريقٍ للوصول إلى محبة اللّه في القلب

أفضل طريقٍ لإيجاد محبّة اللّه في القلب هو ذاك الطريق الذي دلّنا اللّه عليه. ففي حديثٍ قدسيّ يقول اللّه تعالى مخاطبًا كليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلًا: «حَبِّبْني إلى خَلْقي وحَبِّبْ خَلْقي إلَيَّ؛ قال: يا رَبِّ كَيْفَ أَفْعَلُ؟ قالَ: ذَكِّرْهُمْ آلائي وَنَعْمائي لِيُحِبُّوني»[1].

إنّ فطرة الإنسان تقتضي محبّة الشخص الذي يحسن إليه. فاللّه تعالى يؤكّد أيضًا على هذه الفطرة ويقول لموسى أن يذكّر النّاس بالنّعم التي حباهم بها وتلك الحسنات والألطاف التي أنزلها عليهم، ولو التفت النّاس إلى هذه الأمور فإنّ فطرتهم ستسوقهم بصورة تلقائيّة إلى محبّة اللّه والتعلّق به، وكلّما توجّهوا إلى هذه النّعم والمواهب النازلة عليهم سيزداد حبّهم للّه تعالى. فالطريق الذي أُشير إليه في هذه الرواية هو أحد أفضل الطّرق للوصول إلى محبّة اللّه، وهو طريقٌ سهلٌ جدًّا وميسّرٌ يمكن أن نوصي الجميع العمل به. بالطبع، إنّ الطرق التي يسلكها أولياء اللّه، وأولئك المميّزون والذين بلغوا أعلى مراتب الصّلاح وأدركوا بسببها تلك المحبّة الكاملة هي طرقٌ أشدّ دقّةً وعمقًا ولطافةً من هذا الطريق. ولكن على أيّ حالٍ هو طريقٌ مفتوحٌ أمامنا نحن الأشخاص العاديّين. فلو سعى الإنسان لمعرفة نعم اللّه بحقّه وأدركها، وتفحّص تأثيرها على حياته بصورةٍ دقيقة فسوف يحبّ اللّه بصورة طبيعيّة وتصل هذه المحبّة في قلبه إلى درجة التمكّن.

لا حدّ ولا حصر ولا إحصاء لنعم اللّه وألطافه تجاهنا، وفي الحقيقة إنّنا غارقون في بحار نعم اللّه وإنّ إحصاءها خارج عن استطاعتنا وتصوّرنا. ومن جملة تلك النعم التي يمكن أن نتفكّر بها، هي تلك التي لا نتوقّع الوصول إليها بتاتًا. فمثل هذه القضايا متحققة بالنسبة لنا جميعًا في حياتنا بنحوٍ أو آخر، فما أكثر تلك الحالات أو الظروف والمواقف التي احتجنا فيها وتعقّدت أمورنا وأُغلقت جميع الأبواب في

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الباب ٨، الرواية ٦، الصفحة ٤.

وجوهنا وفقدنا الأمل، وبينما نحن على هذه الحال من المضيقة، شملتنا ألطاف اللّه وحُلّت مشاكلنا فجأة وبنحو غير متوقّع، ففي مثل هذه الحالات أو المواقف، تعرض علينا حالةٌ خاصّة وشعورٌ بالحياء والانكسار في مقابل اللّه تعالى، وحتّى دموع الشوق ستنهمر من أعيننا من دون اختيارٍ منّا، ذلك الشوق النابعُ من أنّه كيف أنّ لطف اللّه تعالى شمل هذا العبد الذي لا يساوي شيئًا[1].

فلو أنّنا تذكّرنا تلك الحالة التي منحنا اللّه تعالى فيها تلك النعمة غير المتوقّعة دفعةً واحدة، نحن الذين لا قيمة لنا، فإنّ ذلك سوف يجدّد ذاكرتنا وسوف نستعيد بفضل ذلك حالة الشوق ورقّة القلب التي أُعطيت لنا في ذلك الزّمن. ولو أنّنا تأمّلنا في تلك الحالة مع ما صاحبها من توفيقات خاصّة وجعلناها أمام أعيننا وتذكّرناها، ثمّ جعلناها تسري إلى سائر النعم، فإنّ ذلك سوف يزيد بالتدريج من شوقنا وهيماننا ومحبّتنا للّه تعالى، وإذا تكرّر هذا الأمر، فإنّه يمكن أن يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى ملكةٍ راسخة حيث سنشعر في قلوبنا بحالة المحبّة والاشتياق والتوق للّه تعالى، في جميع حالات الشوق إلى النعم التي منحها اللّه لنا، نحن الذين لا قيمة لنا.

إنّ نعم اللّه لا تنحصر بتلك النعم التي نلتفت إليها في العادة، فإنّ العالم بأسره هو نعمة لكلّ إنسان. فكم يذكر الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ من دقائق النعم ولطائفها، عند تعدادها توجّهه إليها! حقًّا ينبغي لنا أن نتعلّم من الإمام

---

(١) لا يحصل الانكسار القلبي في الابتلاءات والتوجّه إلى العذابات الإلهيّة فقط، فأحيانًا ينبع هذا الحال من شدّة الشوق، وأحيانًا من شدّة الشعور بالخجل، فلا يلزم أن يكون الخشوع للّه ناشئًا من التوجّه إلى قهره وغضبه وعذابه، فالمهم هو أن يكون القلب رقيقًا وتنهمر الدموع، فمثل هذه الحالة يمكن أن تصبح بسبب الشوق والشغف، وكنموذج على ذلك ما ذكرته الآية الكريمة من القرآن الكريم في الإشارة إلى بعض المسيحيين ووصفهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة **المائدة**، الآيتان ٨٢ و٨٣]، فهناك فئة من المسيحيين والرهبان الذين كانوا بعيدين عن الاستكبار وقد كانت أحوالهم أنّهم إذا شاهدوا أو سمعوا بعض العلائم في القرآن والتوراة فإنّهم كانوا من شدّة شوقهم لمعرفة الحق يجري الدمع من أعينهم، وحين كانوا يدركون أنّ هذا النبي هو الذي بشر به عيسى والإنجيل، كانت تعرض عليكم تلك الحالة من الانبساط والشوق والشكر، وتنهمر الدموع من أعينهم.

الحسين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ ونعدّد تلك النّعم الإلهيّة على هذا النحو. فقد وقف هذا الإمام في يوم عرفة في ذلك الحرّ الشديد وتحت الشمس وهو يبكي وكأنّ أمطار الدموع تجري من عينيه المباركتين، وبهذه الحرقة وبهذه الحالة بدأ بذكر تلك النّعم، بدءًا من مجاري نور البصر وحتّى تفاصيل البدن والأسنان والقلب والكبد وسائر الأعضاء وهو يقول: «فَأيَّ نِعَمِكَ يا إلهي أُحْصي عَدَدًا وذِكْرًا؟ أمْ أيُّ عَطاياكَ أقُومُ بِها شُكْرًا؟ وَهِيَ يا ربِّ أكْثَرُ مِنْ أنْ يُحصيَهَا العادُّونَ أوْ يَبْلُغَ عِلْمًا بِهَا الْحافِظونَ... وَأنَا أشْهَدُ يا إلهي بِحَقيقَةِ إيماني... وعَلائِقِ مَجاري نُورِ بَصَري وَأساريرِ صَفْحَةِ جَبيني وَخُرْقِ مَسارِبِ نَفْسي وَخَذاريفِ مارِنِ عِرْنيني وَمَسارِبِ سِماخِ سَمْعي وَما ضُمَّتْ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِ شَفَتايَ وَحَرَكاتِ لَفْظِ لِساني ومَغْرَزِ حَنَكِ فَمي وَفَكّي ومَنابِتِ أَضْراسي وَمَساغِ مَطْعَمي وَمَشْرَبي وَحِمالَةِ أُمِّ رَأْسي وَبَلوعِ فارِغِ حَبائِلِ عُنُقي ... وَما حَوَتْهُ شَراسيفُ أَضْلاعي وَحِقاقُ مَفاصِلي وَقَبْضُ عَوامِلي وأَطْراف أنامِلي وَلَحْمي وَدَمي وَشَعْري وَبَشَري وَعَصَبي وقَصَبي وَعِظامي وَمُخّي وعُروقي وجَميعُ جَوارِحي»[1].

حقًّا كم تلطّف اللّه تعالى بنا، فلو لم يهبنا كلّ واحدة من تلك النّعم، فكم كنّا سنُبتلى بالنقائص والأمراض والصعاب. وعلاوة على هذا، وما هو أعلى من ذلك هو تلك النعم الإلهيّة المعنويّة التي قلّما نتوجّه إليها ونعتني بها.

لقد كان أهل البيت عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يتوجّهون في أدعيتهم ومناجاتهم إلى النعم الإلهيّة المعنويّة، ففي مناجاةٍ للإمام السجّاد عَلَيْهِ‌السَّلَامُ نقرأ قوله: «وَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَينا جَرَيانُ ذِكْرِكَ عَلى أَلْسِنَتِنا وَإِذْنُكَ لَنا بِدُعائِكَ»[2].

ولعلّه لم يخطر على بالنا أنّ هذه نعمةٌ حيث أُجيز للإنسان بأن يخاطب اللّه ويتحدّث معه. فلو قارنّا حقارتنا ولا شيئيّتنا وضعتنا بالعظمة الإلهيّة، فسوف نفهم حنيها أنّنا في الأساس لسنا على ذلك القدر ولا يحقّ لنا أن نقف في محضر اللّه العظيم ونطلب أن نتحدّث إليه. ويجوز أن يُقال لنا في الدنيا كما يُقال للجهنّميين في الآخرة، ﴿اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ﴾[3]. فمن يقدر على الخطاب والكلام وفتح فمه للحديث؟!

---

(١) **مفاتيح الجنان**، دعاء عرفة.

(٢) الإمام زين العابدين، **الصحيفة السجادية**، دعاؤه في مناجاة الذاكرين.

(٣) سورة **المؤمنون**، الآية ١٠٨.

ليس كلّ إنسان يمتلك حقّ الكلام بين يدي اللّه تعالى؛ فما لم يمنحنا هو نفسه الإجازة بذلك فإنّنا لن نحصل على لياقة الحديث معه. تصوّروا مجلسًا عظيمًا يحضره شخصيّة عظيمة، كمقام القيادة المعظّم، ولا يحقّ في هذا المجلس لأحد أن يتحدّث، من قبل أن يحصل على الإذن بذلك. ففي مقابل الحقّ المتعال الذي لا حدّ لعظمته، نحن العباد الفقراء المعدمين، الذين كل ما لدينا هو من عطائه، لا يمكننا ولا ينبغي لنا أن نطلق ألسنتنا بالحديث من دون إذنه. بالطبع، فإنّ اللّه تعالى بمقتضى لطفه ورحمته اللامتناهية ومنتهى عظمته قد أجاز لجميع عباده كلّما أرادوا أن يتوجّهوا إلى محضره ويتحدّثوا معه أن يفعلوا؛ ولكن لو لم تكن مثل هذه الإجازة، لما كان لأحدٍ أن يجيز لنفسه مثل هذا الحق من تلقاء ذاته.

لهذا، فإنّ من أعظم النعم الإلهيّة للعباد هو هذا الإذن الذي منحهم إيّاه لكي يتكلّموا معه، وهم لم يحصلوا على هذا الإذن فحسب، بل قد دُعوا وأُمروا للمسارعة إلى محضره في كلّ يومٍ وليلة عدّة مرّات في قالب الصلاة ليستفيدوا من فيض محادثته. تأمّلوا في معشوقٍ ومحبوبٍ يتمتّع بموقعيّة واعتبار أعلى وأعظم بكثير من المحب والعاشق. إنّ تلك المسافة الاجتماعيّة والاعتبار اللذين يفصلان بين العاشق والمعشوق لا يجيزان من الأساس للعاشق أن يقترب من حرم المعشوق. والآن تصوّروا لو أنّ هذا المعشوق قد بعث برسالةٍ إلى العاشق وهو يقول فيها: «إنّني أنتظر رؤيتك ولقاءك»، فأيّ حالةٍ ستعرض على هذا العاشق! فلعلّه من شدّة الفرح والسرور لن يتمكّن من الاستقرار في بدنه وسوف تنساب دموع الشوق من عينيه من دون اختيار، ونتيجة كل هذا اللطف والعظمة من المعشوق، فإنّه يقترب لأن تحطّم روحه قالب البدن وتعرج محلّقةً إليه. فالصلاة أيضًا تشبه مثل هذه الحالة. لا بل بمقياسٍ أوسع بكثير. فنحن معدمون وحقيرون وفقراء، واللّه هو عظمة لامتناهية خارجة عن حدّ التصوّر. والحال هو أنّه وصل من مثل هذا العظيم إلى مثل هذا الحقير رسالة يقول له فيها سارع إلى حضرتي لتنال من فيض الحضور والمخاطبة.

والآن تصوّروا مثل هذه الساحة بشأن عظيمٍ قد ارتكبنا بحقّه كل هذا الجفاء وتجرأنا مرّاتٍ ومرّات على حقّه من دون أدنى خجل. فلو أنّ جماعةً في يومٍ من الأيّام أسرعوا إلى مجلسه ومحضره العظيم، وكنت أنا في هذه الجماعة مطأطئي الرؤوس ومتقوقعًا في زاوية من زوايا المجلس، فإنّه إن لم يطردني من مجلسه على

تلك الحالة لكان ذاك الحدّ بذاته مورد امتنان كبير. ولكن قام ذاك العظيم بدعوتي إلى جناب قربه وإلى أقرب مقام عنده أيضًا، بالإضافة إلى عدم طردي وإخراجي، بدأ يسألني عن أحوالي بمنتهى الرقّة والملاطفة، فحقًّا ماذا سيكون حالي عندها؟! لقد تلطّف اللّه بنا بأعظم الألطاف حين دعانا إلى الصّلاة وأظهر من عظمته ما يعجز اللسان عن وصفه، فلم يكتفِ بعدم طردنا وإبعادنا بسبب ذلك العصيان والذنوب المتكرّرة فحسب، بل طالبنا بالحضور في محضره المقدّس. وبدل أن نكون نحن من يلتمس ويتضرّع بأن يا ربّنا افتح لنا طريقًا إلى عتبتك وامنحنا لحظةً كي نناجيك، فهو الذي طلب منّا أن نستفيد من عطايا لقائه.

فلو أنّنا التفتنا إلى هذه المسألة وهي أنّ اللّه تعالى مع كلّ عظمته وجلاله قد سمح لعبده الحقير الوضيع العاصي المذنب الناكر للجميل أن يتحدّث معه وأن يتوجّه إليه فإنّ شوقًا واضطرابًا عظيمًا سوف يعترينا وهي حالةٌ لا يمكن وصفها بالطبع. فهذا الشوق والاضطراب لا يشبه أي شوقٍ واضطرابٍ عاديّ ولا يحصل للجميع، فهذا هو الخشوع الناشئ من الشوق والمحبّة.

مقارنة عظمة النعم المعنويّة بالنعم الماديّة

يجب على الإنسان إذا أراد أن يزيد من محبّته للّه أن يبدأ من النعم والألطاف الخاصّة التي تفضّل اللّه بها عليه من ساحة عنايته وأن يعمل على استحضارها في ذاكرته. فمثل هذه الظروف تحدث في حياة كلّ إنسان؛ كأن يكون في حالة احتياجٍ شديد، فيسمع اللّه استغاثته ويأخذ بيده. ثمّ ينبغي أن يسري هذا الذكر والتذكّر إلى سائر النّعم، وذلك لأنّ جميع النعم الإلهيّة مهمّة في مكانها، مثل تلك النعمة التي تشملنا بصورةٍ غير متوقّعة. فلو حصل أدنى خلل في أحد أعضاء بدننا مهما كان صغيرًا، سنعلم عندها أنّها كانت نعمة عظيمة وحتى الآن كنّا غافلين عنها.

المرحلة الثالثة هي أن نتوجّه، بالإضافة إلى النعم الماديّة، إلى النّعم المعنويّة التي صدرت من عناية اللّه تعالى. فإنّ قيمة الكثير من النعم المعنويّة هي أكثر بكثير من النعم الماديّة. فحين نكون في موقع الضيف، فإنّ أحد أوجه احترام صاحب البيت لنا هو أن يتعب نفسه ويعدّ لنا مائدةً من الأطعمة المناسبة، ولكن نشعر بالمزيد من احترامه حين يستقبلنا بالابتسامة والترحيب، ويقابلنا بالمحبّة والعناية

الخاصّة والحميميّة. فإنّ بسمةً واحدةً، أو نظرةً، أو حتّى كلمةً من صاحب البيت قيمتها بالنسبة لنا أعلى بدرجات من دعوته وتقديمه الطّعام لنا؛ فمثل هذه النعمة المعنويّة إذا ما قورنت بالأطعمة والنعم الماديّة تحوز على قيمةٍ أعلى بكثير. إنّ النعم المعنويّة للّه تعالى هي أيضًا على هذه الشاكلة. فلو كان الإنسان من أهل المعرفة، فسوف يدرك أنّ بعض النعم المعنويّة الإلهيّة لا يمكن أن تُقارن بها جميع النعم الماديّة الصادرة منه. فالذين هم أكثر قربًا يدركون لذّة هذه النعم بصورةٍ أفضل. وهناك نعمٌ أعدّها اللّه تعالى لعباده المقرّبين وخاصّته فقط، وهي نعمٌ لا يمكن أن توصف ولا تخطر على بال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَر»[1].

عوامل نشوء الخشوع في الصلاة

١- التوجّه إلى عظمة اللّه

كي يتجلّى الخشوع فينا أثناء الصلاة علينا أن نفكّر مسبقًا بهذه المقولات، فينبغي أن نسعى لإدراك عظمة اللّه وأن نقيس عظمة اللّه بصغرنا وحقارتنا على قدر فهمنا واستطاعتنا.

بناءً عليه، فإنّ إدراك عظمة اللّه باعثٌ على الخشوع. فإذا كنّا نسعى لتحقيق الخشوع في صلاتنا فإنّ من الطرق المؤثّرة جدًّا لتحقيق ذلك هو أن ندرك عظمة اللّه. وسؤالنا الأساسيّ الآن هو كيف يمكن الوصول إلى مثل هذا الإدراك؟

من أجل إدراك عظمة اللّه يجب أوّلًا أن نرى ما هو المفهوم الذي نحمله في أذهاننا حول هذا الأمر من الأساس، فحين نقول ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]، ما هو التصوّر الذي نحمله في أذهاننا حول عظمة اللّه. فنحن كائنات ماديّة ومحدودة وقلّما ننجح في إدراك المفاهيم غير الماديّة. من هنا، يجب أن نسعى لتقوية معرفتنا وأن نرفع من مستواها.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٣٣، الباب ١٦، الرواية ٣٩٧، الصفحة ٨٢.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٥.

وعلى أيّ حال، نحن نحتاج، فيما يتعلّق بمقولة عظمة اللّه، لأنّ نبدأ من هذه المفاهيم الماديّة. ففي البداية، ندرك العظمة من خلال مصاديقها الجسمانيّة والتي ترجع إلى مقولة الكم. فحين نقول بداية إنّ هذا الشيء عظيم يكون مقصودنا أنّ حجمه كبير. وكلّما زاد طول وعرض وارتفاع الشيء، نقول إنّ هذا الشيء أعظم. وفي هذا المجال، هناك موجودات ليس لها حجم وليست جسمانيّة ولكنّنا مع ذلك نطلق عليها مفهوم العظمة والكبر. فعلى سبيل المثال، نقول إنّ روح الشخص الفلانيّ عظيمة، في حين أنّ الروح ليست جسمانيّة وليس لها ماهيّة ماديّة. فنحن لا نقصد بكلامنا هنا أنّ حجم روحه أكبر من الآخرين، ففي هذه الموارد ولأنّنا لا نمتلك مفهومًا آخرًا نتمكّن من خلاله بيان ذلك المعنى وتلك الحقيقة، فإنّنا نضطرّ إلى استعمال هذه الألفاظ ذات المعاني الماديّة. وفي المصطلح، يُطلق على هذا العمل، «التوسعة في المفهوم» أي إنّنا نستعمل ذلك المفهوم الذي وُضع في الأساس لمعنًى ماديّ في معنًى غير ماديّ، ونقول إنّ العظمة لا تنحصر بكبر الجسم، بل يوجد عظمة معنويّة أيضًا. وبهذه الطريقة، حين نريد أن نطلق هذا الوصف على ربّنا، فإنّنا نستفيد من هذه الألفاظ أيضًا، في حين أنّ مصداق العظمة في مورده يتفاوت تفاوتًا كاملًا مع العظمة الجسمانيّة بل حتّى الروحانيّة.

وعلى أيّ حال، نحن لا نملك الخيار لأنّ ذهننا في البداية لا يدرك من مفهوم العظمة سوى ذلك الشيء المرتبط بعظمة الأحجام، ومثلنا في هذه الموارد مثل النملة. يقول الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: « ولعلّ النمل الصغار تتوهّم أن للّه تعالى زبانيّتين، فإنّ ذلك كمالها ويتوهّم أنّ عدمها نقصان لمن لا يتّصف بهما»[1]. ونحن كذلك، فإنّ تصوّراتنا عن اللّه في البداية تكون على هذا النحو، فإنّنا ندرك «العليّ» و«العظيم» بشأن اللّه في القوالب الماديّة ونظنّ أنّ العلوّ للّه بمعنى أنّ اللّه أعلى من السماوات! وذلك لأنّنا لا نفهم من العلوّ في البداية سوى ذاك العلوّ الماديّ. وينبغي أن نضغط بالتدريج على أذهاننا حتّى ننزّه تلك المفاهيم التي نستعملها بحقّ اللّه عن ألواث وشوائب الماديّات والجسمانيّات، ففي المراحل الأولى، تكون معرفتنا لـ «العليّ الأعلى» بشأن اللّه تعالى، مرتبطة بمفهومي العلوّ والانخفاض، في حين أنّه ليس للّه تعالى لا علوٌّ ولا انخفاض.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٦، الباب ٣٧، الرواية ٢٣، الصفحة ٢٩٣.

على أيّ حال، فنحن في البداية نكون مستأنسين بتلك المفاهيم الماديّة، وحين نريد أن نفكّر بشأن القضايا المعنويّة وغير الماديّة، كما في مورد اللّه تعالى وأوصافه، فإنّنا نستفيد في البداية من تلك المفاهيم، ثمّ نقوم بالتدريج بتجريد أذهاننا لنقترب إلى حقيقة تلك المعاني غير الماديّة، ومثل هذه القضيّة تنطبق على إدراك عظمة اللّه أيضًا. إنّ اللّه لا يُدرَك بالبصر، وحين تكون الرؤية القلبية أو النظر بعين القلب غير متاحة لنا فكيف يمكننا أن ندرك عظمة اللّه تعالى؟!

وقد رُوي حديثٌ في كتاب **بحار الأنوار** الشريف[1] لعلّ بعض ما ورد فيه ينسجم مع بحثنا هذا، وهو الحديث الذي ورد بشأن تلك المرأة المدعوّة بـ «زينب العطّارة». كانت هذه المرأة تبيع العطور في المدينة ولهذا اشتُهرت بالعطارة، وكانت تأتي من حين إلى آخر إلى بيت الرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وكان رسول اللّه أو بعض نسائه يشترين العطر منها. وذات يوم، حين دخل النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى منزله، شعر برائحة العطر تملأ المكان، فخمّن أنّه لا بدّ أنّها زينب العطّارة، وحين التقى بها قال لها رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: كلّما أتيتِ منزلنا، تصبح رائحته زكيّة. ولأنّ زينب العطّارة كانت امرأة مؤدّبة، أجابت: يا رسول اللّه، إنّ رائحة وجودك هي أجمل من كلّ عطر العالم، وإنّما أصبح هذا البيت معطّرًا برائحتك. ثمّ قالت له: يا رسول اللّه لم آتِ اليوم لبيع العطر، وإنّما أتيت لأطرح عليك مسألة. فقال لها النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ما هو سؤالك؟ فقالت: لقد جئت لأسألك كيف يمكنني أن أعرف عظمة اللّه؟ وفي الجواب قال لها النبيّ الأكرم فكّري في عظمة خلق اللّه.

ولأنّ زينب العطّارة كانت في بداية الطريق ولا يمكن لها أن تدرك عظمة اللّه بعين القلب، فقد كان ذهنها لحدّ ذلك اليوم معتادًا على المفاهيم الماديّة ولم تكن تمتلك ذاك المعيار الذي تقيس من خلاله الأمور المعنويّة سوى تلك المفاهيم الجسمانيّة. ولهذا، كان لا بدّ لها أن تبدأ من تلك المفاهيم الماديّة والجسمانيّة للعبور إلى المعاني الماروائية والمعنوية لكي تصل في النهاية إلى إدراك عظمة اللّه.

---

(١) نص الرواية في: مولى محمّد صالح المازندراني، **شرح أصول الكافي** (بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، الجزء ١٢، الصفحتان ١٦٧ و١٦٨. وسيأتي بيانها في الصفحات اللاحقة.

فيما يتعلّق بعظمة الجسمانيّات هذه، فإنّنا محدودون أيضًا. فعلى سبيل المثال، لو أردنا أن ندرك عظمة جبل دماوند، ليس لدينا وسيلة سوى أن نبتعد عن سطح الأرض بواسطة الطائرة مثلًا، لأنّنا إذا وقفنا على هذا الجبل، فستكون زاوية نظرنا إليه محدودة، لأنّ هذا الجبل كبيرٌ جدًّا، ولا يمكن أن نراه إلّا من زاويتنا الخاصّة. بناءً عليه، إذا أردنا أن نرى هذا الجبل من جميع الجهات فينبغي لنا أن نرتفع لمئات الأمتار عن سطح الأرض، وننظر إليه من أعلى، من داخل طائرة مثلًا؛ لكن في مثل هذه الحالة، فإنّ عظمة جبل دماوند الواقعيّة لن تتجلّى أمام أعيننا ولن ندركها وذلك لأنّنا كلما ابتعدنا عن الشيء يصبح ذاك الشيء في نظرنا أصغر. فحين تكونون في الطائرة وتنظرون إلى الناس والسيارات في الشوارع وفي المدنية فإنّكم سترونها أصغر بكثير من حجمها الواقعيّ، ونحن نعاني من هذه المحدوديّة في جميع إدراكاتنا الحسيّة التي ترتبط بحجم الأجسام الكبيرة جدًّا. وهذه المحدوديّة تسري إلى إدراكاتنا الخياليّة أيضًا. فعلى سبيل المثال، لو أردنا أن نجسّم بحرًا عظيمًا في خيالنا، فإنّنا لا نستطيع أن ندرك سعته إلّا بحدود الخارج أو بواسطة إدراكاتنا الحسيّة، وحتى لو كانت إدراكاتنا الخياليّة قويّة جدًّا، فإنّنا لا نتجاوز سعته الموجودة في الخارج إلّا قليلًا، وهذا ما يحصل في الذهن من تجسيم الخيالات. ومن هنا، فإنّ حجم وكبر الأجسام العظيمة، غير ممكن لإدراكنا سواء بواسطة الإدراك الحسّيّ، أو حتّى الإدراك الخياليّ.

وبعد الإدراك الحسّيّ والخياليّ، يصل الدور إلى الإدراك العقليّ. فحين نعجز عن إدراك عظمة الأجسام العظيمة والكبيرة، بواسطة الإدراكات الحسيّة والخياليّة، فإنّنا نلجأ إلى العقل والمفاهيم العقليّة. وهنا، تأتي قضيّة المقارنة والنسب والأعداد والأرقام. فعلى سبيل المثال، لأجل بيان العظمة الواقعيّة للبحر المتوسّط، نقول إنّه أكبر بمليون مرّة من ذلك الشاطئ الذي نتخيّله في أذهاننا، أو ممّا أدركناه بحواسنا. لكنّنا باعتماد هذه الطريقة من المقارنات والنسب لا نحلّ أصل المشكلة، وذاك لأنّ تصوّر الأعداد والأرقام بالنسبة لنا، لا يصل إلى المطلق ويصل الأمر في بعض الحالات إلى أنّ العدد يصبح كبيرًا جدًّا إلى الدرجة التي يخرج فيها عن تصوّرنا، هذا بالإضافة إلى أنّ المسافة الواقعيّة بين الأرقام والأعداد والنسب، لا تكون واضحةً في فضاء ذهننا. فعلى سبيل المثال، نحن

نعتبر أنّ المئة هي عشر عشرات، وأن المئة مليار هي عشر عشر مليارات. فقد قمنا هنا ببيان النسبتين بواسطة الأعداد، في حين أنّ ما بين العشرة والمئة يوجد تسعون عددًا يفصل بينهما، لكنّ المسافة الفاصلة بين عشر مليارات ومئة مليار هي تسعون مليارًا. فشتّان ما بين أن يكون أكبر بتسعين مرة وبين أن يكون أكبر بتسع مليارات مرّة. لكنّ إدراكنا العقلي هنا يقول أنّ الفارق في المقارنتين هو ١٠ أضعاف.

بناءً عليه، نحن نرى أنّنا نعاني أيضًا من الضعف والنقص حتّى في إدراك العظمة والسعة الماديّة. والمهارة الأولى في هذا المجال هي أن نقوم بعد التأمّل في مثل هذه القضايا، بتحسين إدراكاتنا للعظمة الماديّة والجسمانيّة والسعي إلى إضفاء الدقّة عليها أكثر حتّى نقترب بعد ذلك من إدراك العظمة المعنويّة وغير الجسمانيّة.

لقد قمنا بعرض هذه المقدّمة الطويلة نسبيًّا، من أجل أن نلتفت لماذا قام النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في مثل هذه الرواية، باقتراح هذا الطريق على زينب العطّارة من أجل إفهامها عظمة وجود اللّه. فعلى سبيل المثال، هناك أرضٌ تبلغ مساحتها مئة فرسخ مربّع، فتصوّروا الآن أنّ خاتمكم قد وقع في هذه الأرض، فما هي النسبة بين الخاتم ومساحة الأرض، أو تصوّروا مثلًا جبل دماوند الكبير ثمّ ضعوا إلى جانبه ذاك الخاتم، فما هي النسبة التي ستكون بينهما؟ فلو سُئلتم فإنّكم لا تستطيعون أن تقولوا إنّ الخاتم يبلغ مقدارًا من تلك الأرض أو الجبل، لكنّكم ستقولون إنّه صغيرٌ جدًّا جدًّا كأنّه لا شيء. وقد أرشد النبيّ الأكرم زينب العطّارة، إلى هذه القضيّة إذا أرادت أن تدرك عظمة اللّه، وهي أن تتفكّر بشأن عظمة خلق اللّه. ثمّ قال لها في معرض تصوير عظمة اللّه: إنّ هذه الكرة الأرضيّة مع كلّ عظمتها وكبرها هي كـ «حلقةٍ ملقاةٍ في فلاة» بالمقارنة مع ما يحيط بها، فهي كالخاتم الذي نقارنه بتلك الأرض الواسعة جدًّا. وفي هذه المقارنة، فإنّ هذا الخاتم شيئًا ضئيلًا بل كلا شيء. وبعد المقارنة بين الأرض وما يحيط بها قال الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بأنّ هذه الأرض مع ما يحيط بها إذا ما قورنت بالسماء الأولى فإنّها ستكون كـ «حلقةٍ ملقاةٍ في فلاة». ثمّ قال لها لو أنّك قمتي بمقارنة السماء الأولى بالسماء الثانية، فإنّ السماء الأولى ستكون كـ «حلقةٍ ملقاةٍ في فلاة»، ثمّ قال لها إنّ السماء الثانية إذا ما قورنت بالسماء الثالثة فسوف تكون أيضًا كحلقةٍ ملقاةٍ

في فلاة. وهكذا، استمرّ النبيّ بالمقارنة حتى وصل إلى السماء السابعة[١].

وفي ذلك العصر، لم تكن السنة الضوئية معروفةً. وبالنسبة لامرأةٍ بسيطة وغير متعلّمة، فلا نجد أفضل ممّا ذكره النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بشأن بيان عظمة العالم. وفي يومنا هذا، فإنّ أهل العلم وأولئك الذين يدرسون الفلك والفضاء،

---

(١) نص الرواية: عن أبي عبد الله (عَلَيْهِٱلسَّلَامُ) قال: جاءت زينب العطّارة الحولاء إلى نساء النبي (صلى الله عليه وآله) وبناته وكانت تبيع منهن العطر فجاء النبي (صلى الله عليه وآله) وهي عندهن فقال: إذا أتيتنا طابت بيوتنا، فقالت: بيوتك بريحك أطيب يا رسول الله، قال: إذا بعت فأحسني ولا تغشي فإنه أتقى وأبقى للمال، فقالت: يا رسول الله ما أتيت بشيء من بيعي وإنما أتيت أسألك عن عظمة الله عز وجل، فقال: جل جلال الله ساحدثك عن بعض ذلك، ثم قال: إن هذه الأرض بمن عليها عند التي تحتها كحلقة ملقاة في فلاة قي وهاتان بمن فيهما ومن عليهما عند التي تحتها كحلقة ملقاة في فلاة قي والثالثة حتى انتهى إلى السابعة وتلا هذه الآية (خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن)، والسبع الأرضين بمن فيهن ومن عليهن على ظهر الديك كحلقة ملقاة في فلاة قي والديك له جناحان جناح في المشرق وجناح في المغرب ورجلاه في التخوم، والسبع والديك بمن فيه ومن عليه على الصخرة كحلقة ملقاة في فلاة قي والصخرة بمن فيها ومن عليها على ظهر الحوت كحلقة ملقاة في فلاة قي والسبع والديك والصخرة والحوت بمن فيه ومن عليه على البحر المظلم كحلقة ملقاة في فلاة قي، والسبع والديك والصخرة والحوت والبحر المظلم على الهواء الذاهب كحلقة ملقاة في فلاة قي والسبع والديك والصخرة والحوت والبحر المظلم والهواء على الثرى كحلقة ملقاة في فلاة قي، ثم تلا هذه الآية (له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) ثم انقطع الخبر عند الثرى، والسبع والديك والصخرة والحوت والبحر المظلم والهواء والثرى بمن فيه ومن عليه عند السماء الأولى كحلقة في فلاة قي؛ وهذا كله والسماء الدنيا بمن عليها ومن فيها عند فوقها كحلقة في فلاة قي وهاتان السماءان ومن فيهما ومن عليهما عند التي فوقهما كحلقة قي، وهذه الثلاث بمن فيهن ومن عليهن عند الرابعة كحلقة في فلاة قي حتى انتهى إلى السابعة، وهن ومن فيهن ومن عليهن عند البحر المكفوف عن أهل الأرض كحلقة في فلاة قي، وهذه السبع والبحر المكفوف عند جبال البرد كحلقة في فلاة قي وتلا هذه الآية: (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) وهذه السبع والبحر المكفوف وجبال البرد عند الهواء الذي تحار فيه القلوب كحلقة في فلاة قي، وهذه السبع والبحر المكفوف وجبال البرد والهواء عند حجب النور كحلقة في فلاة قي، وهذه السبع والبحر المكفوف وجبال البرد والهواء وحجب النور عند الكرسي كحلقة في فلاة قي، ثم تلا هذه الآية: (وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم)، وهذه السبع والبحر المكفوف وجبال البرد والهواء وحجب النور والكرسي عند العرش كحلقة في فلاة قي وتلا هذه الآية: (الرحمن على العرش استوى) وفي رواية الحسن: الحجب قبل الهواء الذي تحار فيه القلوب.

يستطيعون أن يتصوّروا إلى حدٍّ ما نسبة هذه الأرض إلى المنظومة الشمسيّة ويدركون مدى صغرها. ولو أنّنا أخذنا هذه المنظومة الشمسيّة واعتبرناها بحجم البرتقالة، فإنّ هذه الكرة الأرضيّة لن تكون أكبر من واحدة من تلك المسامات الموجودة على قشرة البرتقالة. وهكذا، فإنّكم إذا قارنتم هذه المنظومة الشمسيّة بدرب التبّانة التي تحيط بهذه المنظومة الشمسيّة فلن تكون هذه المنظومة الشمسيّة أكبر من قشّةٍ في كومةٍ كبيرةٍ من التبن. إنّ الضوء يعبر في كلّ ثانيةٍ ما يعادل ٣٠٠ ألف كيلومترًا. وإنّ المسافة التي تفصل بين الكرة الأرضيّة والشمس هي كبيرة إلى الحدّ أنّ ضوء الشمس بالرغم من سرعته الهائلة فإنّه يحتاج إلى ما يقارب الثمان دقائق حتّى يصل إلى الأرض، أي إنّ هذه المسافة التي تصل بين الأرض والشمس هي بحدود ١٥٠ كيلومترًا. وهذا الفضاء نفسه بكلّ ما فيه، مع إضافة عشرة أضعاف إلى ما ذكرنا، وهي المسافة الفاصلة بين كواكب المنظومة الشمسيّة، إذا ما قورن بعظمة درب التبّانة، فالنتيجة هي ما يقارب الصفر. حقًّا كم تبلغ عظمة مجرّة درب التبّانة حتى إنّ عدّة مئات من ملايين الكيلومترات ستكون بالمقارنة معها بحكم الصفر! هذا في حين أنّ علماء الفلك اليوم يقولون إنّ مجرّة درب التبّانة هي واحدة من ملايين أو مليارات المجرّات الموجودة في هذا الفضاء اللامتناهي. وفي بعض الأحيان، إنّ المسافة التي تفصل بين مجرّةٍ ومجرّة أخرى تبلغ عشر مليارات سنة ضوئيّة. أي إنّنا لو تحرّكنا بسرعة تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ كلم في الثانية، فإنّنا نحتاج إلى عشر مليارات سنة أو ٣ تريليونات وستمئة خمسين مليار يوم لكي نصل إلى المجرّة الثانية! والآن خذوا بعين الاعتبار كم أنّ الكرة الأرضيّة صغيرة ولا شيء أمام هذه السعة اللامتناهية؛ إنّ الأمر يصل حدّ يخرج عن التصوّر. فحين يكون الإنسان بالمقارنة مع هذه الكرة الأرضية لا يساوي قشّة، فكم سيكون حظّه ونصيبه من الوجود في مقابل كل هذا العالم؟! فهو نقطةٌ سوداء أصغر بكثير من رأس الإبرة أمام هذه السّعة الجغرافيّة اللامتناهية للوجود. لو أنّ الإنسان فكّر جيّدًا في مثل هذه المقارنة، فإنّه سوف يذوب من فرط خجله ولا شيئيّته وينكمش ويهوي إلى الأرض. بالطبع، إنّ اللّه تعالى هو ذلك الموجود الذي جعل هذا العالم الواسع المترامي بإرادة واحدة موجودًا، وهو قادرٌ على أن يجعله بإرادةٍ واحدةٍ منه معدومًا.

بناءً عليه، ولكي ندرك زاويةً من عظمة اللّه، فإنّنا نحتاج إلى تحريك أذهاننا بنفس الطريقة التي علمّها الرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى زينب العطّارة، ونحلّق

في هذا الكون الوسيع اللامتناهي. ونحن نأمل أنّه بعد عشرات السنين من دراسة الفقه والأصول والفلسفة والعرفان لن نتمكّن من تصوّر عظمة هذا العالم بالمقدار الذي أدركته تلك السيّدة الأميّة بائعة العطور. ينبغي لنا حين نريد أن نقول «اللّه أكبر» ونشرع في الصلاة، أن نستحضر صغرنا وضعتنا مقابل عالم الوجود، وأن نتأمّل كم نحن لا شيء واقعًا أمام هذه العظمة. فلو أدرك الإنسان هذه الحقيقة، فإنّ ظاهره وباطنه سيعكسان حالة الخشوع من دون أي رياء أو تصنّع. ولا شكّ بأنّنا إذا أضفنا بعض المعارف الأخرى إلى هذه المعرفة، فإنّ موجودًا، مع كل هذه الضعة والصغر، لن يستعرض عضلاته أبدًا مقابل اللّه تعالى، ولن يخرج عن حكمه، ولن يعلن الحرب عليه. ففي حال إدراك هذه الحقائق، لو أنّ الفطرة الإنسانيّة استيقظت ولو بمقدار رأس إبرة، فإنّ هذا الإنسان سيذوب خجلًا وحياءً، فما بالك بأن يرغب بمواجهة اللّه بصدرٍ مدرّع ويعلن الحرب عليه! فلو أنّنا إلى جانب إدراك عظمة اللّه تعالى، توجّهنا إلى عِظم المعصية أمام مثل هذا العظيم، وإلى عظمة العذابات التي أُعدّت للعصاة، فإنّ خشوعنا سيزداد عدّة أضعاف.

وباختصار، فلأجل أن نتمكّن من الصلاة بخشوع، فإنّ أحد الطرق هو أن نستحضر عظمة اللّه أوّلًا. وبحسب كلام النبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، حتى ندرك العظمة الإلهيّة، يجب أن نفكّر بعظمة خلق اللّه، ومن ثمّ نتوجّه إلى هذه النقطة وهي أنّ الذي خلق كل هذا الكون العظيم اللامتناهي بإرادةٍ واحدةٍ منه كيف ستكون عظمته! إنّها عظمة غير ماديّة ولا جسمانيّة وإن كان الطريق للوصول إلى إدراكها يبدأ من المفاهيم والمصاديق الماديّة.

٢- التوجّه إلى جمال صفات اللّه

أحد الطرق الأخرى لتحصيل الخشوع في الصلاة هو التوجّه إلى «صفات الجمال» الإلهيّ. في الواقع، إنّ هذا الطريق هو طريق العشق والمحبّة. فحين يتوجّه الإنسان إلى جمال صفات اللّه، فإنّه يجده تعالى موجودًا محبوبًا مستحقًّا للثناء والعبادة، لهذا فإنّه يخضع له ويخشع. وهذه قاعدة كلّيّة وعامّة وهي أنّ الإنسان كلّما أحبّ شخصًا أكثر فإنّه يسعى للتقرّب إليه أكثر. وفي مورد اللّه تعالى أيضًا، فإنّ محبّة اللّه كلّما تضاعفت واشتدّت في القلب، فإنّ الشوق للتقرّب والارتباط والاتّصال به سيصبح أكبر. وهكذا تكون محبّة اللّه هي نتيجة معرفة صفات جماله

والتوجّه إليها. إنّ شوق لقاء اللّه، يكون أكثر اشتعالًا في قلوب أولئك الذين عرفوا صفات جمال اللّه أكثر وبنحوٍ أفضل، والذين تكون محبّة اللّه في قلوبهم أكبر. فلو تحقّقت مثل هذه الحالة في الإنسان ولو إلى حدٍّ ما، فإنّ الصلاة ولكونها ميعاد اللقاء بالمحبوب، سوف تكون سببًا لاشتعال شوق الوصال في القلب. وحين يصل في الصلاة إلى وصال معشوقه ومحبوبه فإنّه سيشعر في مقابل محبوبه بالمذلّة والخضوع. إن منشأ هذه الحالة وشدّتها وضعفها، يرتبط بمدى شوق لقاء اللّه في الإنسان. فشوق لقاء اللّه تابعٌ لمدى محبّة الإنسان للّه تعالى، والمحبّة تابعةٌ لمدى معرفة الإنسان بصفات جمال اللّه. وعلى هذا الأساس، رغم أنّ الإنسان أثناء الصلاة لا يرى محبوبه بالعين، لكنّ نيران شوق الوصال وحرارة موعد اللقاء المعنويّ، تهيمن على كلّ وجوده.

٣- الخوف من اللّه

ومن العوامل الأخرى التي تؤدّي إلى تحقيق الخشوع في الصلاة هي حالة الخوف من اللّه. وقد تمّ التصريح والتأكيد في الكثير من الآيات والروايات على أنّ المؤمن ينبغي أن يمتلك حالة الخوف من اللّه. فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

وفي مكانٍ آخر يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[٢].

أو يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[٣].

ويوجد في روايات أهل البيت عليهم السلام، الكثير من الموارد التي أُشير فيها إلى قضيّة الخوف من اللّه. إنّ عدد هذه الروايات هو من الكثرة بحيث عُقد في الكتب والجوامع الروائية أبواب مستقلة حول الخوف والخشية من اللّه. وفي الأدعية والمناجاة التي نُقلت عن الأئمة الأطهار عليهم السلام هناك الكثير من

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٧٥.
(٢) سورة **النازعات**، الآية ٤٠-٤١.
(٣) سورة **المائدة**، الآية ٣.

المضامين التي تحكي عن حالة الخوف من اللّه. ومن بين تلك المناجاة الخمسة عشر المروية عن الإمام السجاد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يوجد مناجاة الخائفين.

وبالإضافة إلى كلّ هذه، فإنّ السيرة العمليّة للنبيّ الأكرم ولأهل بيته عليهم السلام، وكذلك للأشخاص الأجلّاء تحكي من دون استثناء عن وجود حالة الخوف من اللّه عند الجميع، حتى في بعض الموارد قيل إنّه تعرض عليهم أحوالٌ شبيهةٌ بالغشيان وأنّهم كانوا يُصعقون من شدّة الخوف من اللّه.

والآن يجب أن نرى ونبحث عن المعنى المقصود من «الخوف من اللّه». فهل يمكن أن يكون الإنسان خائفًا من موجودٍ أو من شخصٍ وفي الوقت نفسه تربطه به رابطة المحبة والمودّة. وبعبارةٍ أخرى، هل يمكن أن يشعر الإنسان بلذّة الخوف من اللّه ويكون هذا الأمر بالنسبة له مطلوبًا؟! ويتأكّد هذا السؤال في هذا الزمن الذي يتّجه فيه الجميع نحو الفرح والسرور والبهجة واللعب أكثر من الخوف والبكاء والتضرّع[1].

إنّنا نسعى لتحقيق الخشوع في الصلاة، وأحد الطرق التي يمكن أن توصلنا إلى ذلك هو الوصول إلى حالة الخوف من اللّه، من هنا يجب أن نبحث بشأن كيفية تحصيل هذه الحالة.

---

(١) إنّ الخوف من اللّه في الثقافة الإسلامية والقرآن والروايات، والحثّ والترغيب عليه هو أمرٌ لا يمكن إنكاره ويُعدّ من المسلّمات. ومع ذلك، أراد بعض الأشخاص من خلال طرح بعض الشبهات الواهية والضعيفة أن يشكّكوا في هذه القضيّة. فيُقال مثلًا إنّ الإنسان يخاف من الموجودات المرعبة، فهل أنّ اللّه تعالى موجودٌ مرعبٌ ومخيف لكي نخاف منه؟! ومن الواضح أنّ مثل هذه الشبهة تنمّ عن خفّةٍ وسذاجة وأنّ الإجابة عنها واضحة جدًّا. والإجابة عن مثل هذا النوع من الشبهات هو أنّ الخوف من اللّه هو في الواقع بسبب أعمالنا، وينبع من النظام الذي يجعله اللّه تعالى مقابل الأعمال القبيحة، فقد خلق اللّه تعالى نظام العالم بحيث أن كل من يتركب السيّئة فيه سوف يرى الآثار السيّئة. وحين يحيي اللّه تعالى الإنسان يوم القيامة، فإنّ الذي يكون قد ارتكب السيّئات يستحقّ العقاب ولأجل ذلك فإنّه يُساق إلى جهنّم والعذاب، وهذا هو النظام الثابت لعالم الوجود ولأنّه كذلك فإنّنا نخاف من أن تكون أعمالنا القبيحة وسيّئاتنا سببًا لجعلنا مشمولين لهذا النظام، وأن نكون لا سمح اللّه مستحقّين لجهنّم النقمة الإلهيّة. بناءً عليه، فإنّ اللّه تعالى ليس موجودًا موحشًا ومرعبًا، بل إنّ الشيء المخيف هو أعمالنا وسلوكيّاتنا السيّئة التي يمكن أن تسوقنا على أساس هذا النظام الذي جعله اللّه نحو جهنّم والعذاب الإلهيّ.

مراتب الخوف من اللّه

أ- الخوف من فراق الربّ

النقطة الأولى التي ينبغي التوجّه إليها في هذا المجال هي أنّ خوف الأفراد من اللّه يتفاوت بحسب تفاوت إيمانهم ومعرفتهم وهذا التفاوت كبيرٌ جدًّا. فخوف الأولياء، الذين هم خاصّة اللّه، يختلف تمامًا عن الخوف الموجود فينا. ولهذا، فإنّ أنواع خوفنا ليست مورد ابتلاء عندهم. ولهذا، فإنّ القرآن الكريم ينفي عنهم هذا النوع من الخوف، وذلك في معرض ذكر نقاط قوّتهم وصفاتهم الممدوحة: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

ويمكن من خلال بعض الأدعية الواردة عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أن نحدس وندرك بدرجةٍ ما أيّ نوعٍ من الخوف كان خوف هؤلاء (العظام) من اللّه تعالى. فعلى سبيل المثال، ننقل هذه العبارة الواردة عن أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعاء كميل، حين يتوجّه إلى اللّه تعالى ويقول: «فَهَبْني... صَبَرْتُ عَلى عَذابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلى فِراقِكَ»[2].

وما يفهمه المرء من مثل هذا الكلام هو أنّ خوف أولياء الدين من اللّه هو أعلى بكثير من أنواع خوفنا وأشدّ قوّةً منه، هذا بالرغم من أنّهم يدركون عظمة العذاب الإلهيّ أكثر منّا بدرجات وهم يعلمون بحقيقته ويدركون جيّدًا كم أنّ هذا العذاب الأخرويّ شديدٌ ومؤلمٌ ولكنّهم مع ذلك يقولون ربّنا إنّ تحمّل هذا العذاب أسهل علينا من تحمّل فراقك وبعدك.

يجب أن نذعن الآن أنّنا لا نفهم جيّدًا المعنى الكامن في هذا النوع من القضايا، وذلك لأنّنا لا نشعر بحصول أي نقصٍ في مجال فراق اللّه تعالى لنا. وباختصار، لو أردنا أن نقترب قليلًا من أجواء هذا النوع من المسائل، يجب أن نلتفت إلى علاقة المحبة التي تجمع المحبّ بالمحبوب، فأولئك الذين لديهم نوع اطّلاعٍ على عوالم المحبّة يعلمون أنّ أكبر حاجةٍ يعيشها المحبّ والعاشق هي أن يكون مورد توجّه محبوبه ومعشوقه، وأن يصل بأي شكلٍ أو طريقة إلى وصال

---

(١) سورة **يونس**، الآية ٦٢.

(٢) **مفاتيح الجنان**، دعاء كميل.

محبوبه. «الوصال» يقابل «الفراق». وإذا كان أحدٌ ما يتألّم ويئنّ من فراق اللّه فهو يدرك حتمًا معنى وصاله. ومن هنا، حين يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَهَبْني ... صَبَرْتُ عَلى عَذابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلى فِراقِكَ»، يُعلم أنّ هذا الإمام قد ذاق لذّة وصال اللّه حيث إنّ فقدان ذلك وتحوّله إلى فراق يستتبع كلّ هذا الألم والعذاب. ولأجل إدراك معنى الوصال، يجب أن يكون المرء من أهل المحبّة. فالذين يعيشون أجواء هذا العالم يدركون أنّ مثل هذه الرابطة بين المحبّ والمحبوب وما يحصل فيها تشعرهم بأنّه لا يمكن أن يحول بينهما أيّ حائل، وهذه هي حالة الوصال. ففي مثل هذا الحال، فإنّ كل شخص، بمقدار مرتبة محبّته وبمقدار الكمال الوجودي لمحبوبه، يشعر بتلك اللذّة التي لا يمكن وصفها بأي كلمة. وإذا أردنا أن نقترب قليلًا من هذه الحالة يجب أن نقرأ «مناجاة المحبين» من المناجاة الخمسة عشر، ونتأمّل في مضامينها، فنقترب إلى حدٍّ ما من معرفة الأئمّة الأطهار عليهم السلام لهذه المحبّة الإلهيّة. وعلى أيّ حال، فإنّ الذين نالوا درجةً من محبّة اللّه وذاقوا حلاوتها لن يبقى بالنسبة لهم أيّ شيءٍ آخر ذا قيمة. هذا ما نقرأه في مناجاة المحبّين للإمام السجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي يقول: «إلهي مَنْ ذَا الَّذي ذاقَ حَلاوَةَ محبّتِك فرامَ مِنْكَ بَدَلا»[1].

أولئك الذين أدركوا شيئًا من هذه المعاني وذاقوا حلاوتها سيكون منتهى آمالهم أن يدركوا وصال محبوبهم؛ وفي المقابل إنّ أشد ما يخشونه ويخافونه هو أن يُحرموا من وصاله وأن يُبتلوا بفراقه. فهذا نوعٌ ودرجةٌ من الخوف الإلهيّ، الخوف من الفراق والخوف من عدم الوصول إلى تلك الأمنية القديمة التي أدركوا منها بعض المراتب في هذا العالم وسوف تحصل المرتبة الكاملة منها في الآخرة.

ب- خوف الحرمان من نظرة اللطف الإلهيّ

المرتبة الأخرى من مخافة اللّه هي خوف الإنسان من أن يُحرم في الآخرة من نعم اللّه. وفي تقسيمٍ كلّيّ، فإنّ نعم اللّه على نوعين: النعم الماديّة، والنعم المعنويّة. فالذين وصلوا إلى المعرفة الكاملة باللّه يعلمون أنّ معظم النعم الإلهيّة المعنويّة

---

(١) **مفاتيح الجنان**، مناجاة المحبّين.

هي توجّه اللّه إليهم وعنايته بهم. ومن هنا، فإنّ أشدّ ما يخافونه هو أن يُحرموا في عالم الآخرة من هذه النعمة الكبرى، فلا يقبل اللّه عليهم ولا ينظر إليهم ولا يكلّمهم. وهكذا نجد أنّ اللّه تعالى، وحين يريد أن يذكر أشد أنواع العذاب الذي ينزل على بعض الناس في الآخرة، يقول: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[1].

فقد وصل هؤلاء الأشخاص إلى مستوى من التسافل والسقوط لدرجة أن لا يكلّمهم اللّه تعالى يوم القيامة ولا ينظر إليهم. وبالطبع، نحن نعجز عن إدراك كيفيّة كلام اللّه ونظره في ذلك العالم وما هو المفهوم الذي يعنيه. ولكن على أي حال، لو أدرك الإنسان شيئًا من هذه المحبّة الإنسانيّة والدنيويّة يعلم أنّه لا يوجد من شيء بالنسبة للمحبّ أشدّ إيلامًا من ألّا يعتني به محبوبه، ولا يوجد ما هو أشدّ إيلامًا من أن يقاطعه ويجفو عنه؛ حتّى الأطفال في هذه الدنيا يدركون هذا المعنى. فمن أكثر الأمور المزعجة والمؤلمة للطفل وأشدّها عليه، هو أن تزعل منه أمّه ولا تنظر إليه ولا تعتني به. وتنطبق هذه القضيّة أيضًا على الكبار. فالذين لديهم المعرفة الكاملة، سيرون في عدم مكالمة اللّه تعالى لهم وعدم نظره وعنايته بهم أشدّ العذاب. فمن عذابات اللّه الكبرى للكفّار والعصاة يوم القيامة هي أن لا ينظر إليهم. ولو لم تكن مثل هذه الآيات القرآنيّة لكان بيان هذه القضيّة بالنسبة لنا صعبٌ جدًّا ولكنّ القرآن شاهدٌ قويٌّ عليها. ومن هنا، فإنّ البعض يخافون من ألّا ينظر اللّه إليهم ولا يعتني بهم. بالطبع، إنّ عامّة النّاس قلّما يتوجّهون إلى هذه المسألة، أو أنّهم يتصوّرون بكلّ سذاجة أنّ اللّه تعالى يحبّهم حتمًا ولا شكّ بأنّه سيعتني بهم.

أولئك الذين وصلوا إلى مراتب المعرفة العليا، حين يقومون مقام العبادة، فإنّهم يحبّون أن ينالوا في حالتهم هذه توجّه اللّه إليهم، وهم يتمنّون وقت قولهم «يا اللّه» أن يسمعوا جواب «لبّيك» من اللّه. ولقد كانت أحد مطالب حضرات المعصومين عليهم السلام في مناجاتهم أن يسمعوا من اللّه الجواب والتوجّه حين يخاطبونه وينادونه: «وَاسْمَعْ نِدائي إذا نادَيْتُكَ ... وَأَقْبِلْ عَلَيَّ إذا ناجَيْتُكَ»[2].

ولا شكّ بأنّ اللّه تعالى مطّلعٌ ومحيطٌ بكلّ شيء ويسمع كلّ الأصوات، ولكن

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٧٧.

(٢) **مفاتيح الجنان**، المناجاة الشعبانيّة.

هذا السماع المذكور هنا هو شيءٌ آخر وينبع من المحبّة والعناية الخاصّين. فاللّه تعالى يسمع جميع الأصوات لكن هذا لا يعني بالضرورة أنّه كلّه ناشئٌ من المحبّة والعناية. أجل، القضيّة هي هنا، في الفارق بين السماع والاستماع. ففي بعض الأحيان، نحن نسمع كلام أحد في الوقت الذي نعرض ونولي عنه، ومثل هذا السماع هو نوعٌ من العذاب بالنسبة للطرف الآخر أو المقابل. أما في بعض الأحيان، فإنّ هذا السماع يمتزج بالابتسامة والنظرة المحبّة من المحبوب، فمثل هذا السماع يجلب للمحب أعلى اللذات. ولقد كان حضرات الأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يسألون اللّه تعالى في أدعيتهم مثل هذا السماع. وها نحن في الصلاة نقول بعد رفع الرأس من الركوع: «سَمِعَ اللّه لِمَنْ حَمِدَهُ». ونعني بذلك أنّ اللّه تعالى يسمع حمد وثناء الذي يحمده، والمقصود بهذا الكلام السماع الناشئ من المحبّة واللطف.

وعلى أيّ حال، هناك نوع من «الخوف من اللّه» وهو الذي يعيش فيه هؤلاء الأشخاص خوفًا شديدًا من ألّا تدركهم عناية اللّه تعالى، وألّا يخاطبهم وألا يسمع نداءهم. إنّ فقدان مثل هذه العناية الإلهيّة هو بالنسبة إليهم أشدّ إيلامًا من عذاب جهنّم. فالطفل الذي تزعل أمّه منه يبكي ويلتمس قائلًا: «اضربيني يا أمّي، وافعلي بي ما تشائين ولكن لا تزعلي منّي». وهناك أشخاصٌ يقولون للّه تعالى أيضًا: «إلهي أحرقني في نار جهنّمك، ولكن لا تحرمني من نظر عنايتك»، فخوف هؤلاء هو أن يُحرموا من النظرة والعناية الإلهيّة.

«افعل ما تفعل بي لكن لا تتركني».

ج- الخوف من تبعات الذنوب

وإحدى المراتب الأخرى للخوف هي المرتبة الشائعة أي الخوف من المعاصي وآثارها السيّئة التي تحيط بالإنسان وتحوق به. وهذه هي أدنى مراتب «الخوف من اللّه». وللأسف، فإنّنا بسبب ضعف معرفتنا وإيماننا لا نأخذ هذه المرتبة النازلة من الخوف على محمل الجدّ أيضًا؛ هذا في حين أنّ القرآن الكريم وحده يحتوي على عشرات بل مئات الآيات بشأن جهنّم ووصف العذابات الموجودة فيها؛ وفي بعضها نجد الإشارة الإجماليّة إلى وصف عذاب جهنّم كما في قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وفي العديد من الموارد الأخرى، ذُكرت

هذه العذابات على نحوٍ تفصيليّ، ولكن هل فكّرنا يومًا بإعطاء أنفسنا فرصةً للتأمّل في هذه الآيات حين قراءتها؟ فلو كنّا نقرأ القرآن من حينٍ إلى آخر نجد أنّنا نمرّ على الكلمات والآيات بسرعة لكي ننهي القراءة بأسرع ما يمكن! وحين نستمع إلى قارئٍ حسن الصوت والأداء، فإنّنا نركّز على الجانب الفنّي في القضيّة وكيف أنّه قارئٌ مميّز وصاحب نفسٍ طويل وكم يراعي قواعد التجويد من دون أن نتوجّه إلى الآية نفسها ومعناها ومضمونها. وبمعزلٍ عن الروايات، فلو أنّنا التفتنا إلى تلك التفاصيل التي ذُكرت حول جهنّم ضمن آيات القرآن الكريم، لما كان عجبًا، أن تعترينا حالة شبيهة بالجنون. هذا في حين أنّ تفاصيل العذاب الإلهيّ وخصائصه التي ذُكرت في الروايات أكثر بكثير وأشدّ عجبًا، ولكنّنا نمرّ على ذلك كلّه من دون أن نأخذه على محمل الجدّ. وقد جاء في الروايات أنّ قطرةً واحدةً من ذلك السائل الذي يشرب منه أهل جهنّم، إذا امتزجت بمياه الأرض كلّها لمات جميع سكّانها من نتن رائحتها[1]. فلو أنّنا التفتنا إلى مثل هذه المفاهيم، ورأينا ما هي هذه العقوبات التي نستحقّها بسبب تلك المعاصي والذنوب، لأثّر ذلك في خوفنا وخشيتنا من اللّه.

وبالإضافة إلى العقوبة على المعصية، يجب أن نتوجّه أيضًا إلى قبح المعصية ذاتها ووخامة مخالفة اللّه تعالى. فلو عصى الإنسان اللّه في عمره مرّةً واحدةً لكان هذا الأمر قبيحًا جدًّا، ولكان لزامًا عليه أن يذوب خجلًا. فهو الربّ الذي كان أصل وجودنا وكلّ النعم التي نتمتّع بها منه. وحين يأمر أو ينهى فإنّ ذلك لأجل مصلحتنا، التي يمكن أن ننالها بمراعاة أحكامه وأوامره، وبدل من أن نشكره على ذلك فإنّنا نرفع راية مخالفته عاليًا!

فاللّه تعالى يقول لنا إن عصيناه فإنّنا نفرح عدوّنا وعدوّه، ومع ذلك فإنّنا نقوم بذلك ونفرح عدوّنا وعدوّ اللّه، فإنّ مخالفة أمر اللّه ونهيه ليست سوى عبادة وطاعة للشيطان، ذلك الشيطان الذي هو عدوٌّ للإنسان: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨، الباب ٢٤، الرواية ١، الصفحة ٢٨٠. «[...] لو أنّ قطرة من الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها [...]».

(٢) سورة **يوسف**، الآية ٥.

تصوّروا أنّ أحد أصدقائكم قال لكم: «لا تستمع إلى كلام فلان لأنّه عدوّي». فلو أنّكم سمعتم كلام فلان، ألن تخجلوا من النظر إلى وجه هذا الصديق؟! رغم أنّ هذا الصديق ليس هو من منحكم الوجود ولا الماء ولا الغذاء ولا العزّة ولا الشأنيّة ولا ... وإنّما هو صديقٌ عاديّ. ألا ينبغي للّه أن يكون بنظرنا بالحدّ الأدنى بأهميّة صديقٍ عاديّ؟!

إنّ كلّ معصيةٍ تصدر منّا هي في الواقع إطاعة لعدوّنا وعدوّ اللّه، ولقد أمرنا اللّه بسلسلة من الأمور من واقع الرحمة واللطف وذلك من أجل ألّا نسقط ولا نُبتلى بالمشاكل والصعاب والمصائب، وها نحن نردّ هذه المحبّة الإلهيّة ونوالي عدوّنا وعدوّ اللّه. حقًّا، كم هي قبيحة هذه المخالفة! فالإنسان إن عصى في حياته مرّةً واحدة لكان مستحقًّا دومًا للحرمان من رحمة اللّه، ولكان مستحقًّا أيضًا أن يكله اللّه إلى نفسه. فلو نظر الإنسان نظرةً واحدةً إلى غير المحرم لكان يحقّ للّه تعالى أن يأخذ بصره، وذلك لأنّ اللّه تعالى قد أعطى الإنسان هذه العين لأجل أن يستعملها بصورة صحيحة، ولكنّنا استعملناها على طريق الإضرار بأنفسنا. ألا يحقّ للّه أن يسلبنا هذه العين؟!

وفي واحدٍ من أدعيته الشريفة، يقول الإمام السجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ بَكَيْتُ إِلَيْكَ حَتّى تَسْقُطَ أَشْفارُ عَيْنيَّ وَانْتَحَبْتُ حَتّى يَنْقَطِعَ صَوْتِي ... ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفِي إِلى آفَاقِ السَّمَاءِ اسْتِحْيَاءً مِنْكَ مَا اسْتَوْجَبْتُ بذلِكَ مَحْوَ سَيِّئَة واحِدَة مِنْ سيّئاتِي»[1].

يقول الإمام السجّاد: أجل، يا ربّي لو أنّني ارتكبت معصيةً واحدة لكنت بذلك مستحقًّا أن أبقى طيلة عمري على هذه الأحوال ولن أتمكّن بكل أنواع البكاء والعبادات أن أصل إلى حالةٍ أستحقّ معها محو سيّئةٍ واحدةٍ من سيّئاتي، اللهم إلّا إذا كان ذلك من لطفك ورحمتك.

فلو قلتم لأحد أصدقائكم أو لولدكم أو لأيّ شخصٍ آخر لكم عليه الحقّ: «لا تقم بذلك الفعل»، ثمّ عصاكم، فمن الممكن أن تصفح عنه مرّة أو مرّتين أو ثلاث؛

---

(١) **الصحيفة السجّاديّة**، الدعاء ١٦.

ولكن إذا وصلت المخالفة إلى مئة مرّة أو عشر آلاف مرّة فكيف سيكون الأمر؟ فإنّكم لن تنظروا إليه بعدها، وسوف تغضبون منه وينفد صبركم. من هنا ورد في بعض المناجاة أنّ الإمام عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يقول: «إلهي أعوذ بك من غضبك».

إنّنا منذ المعصية الأولى نصبح مستحقّين لأن يسلب اللّه تعالى منّا نعمه، فما بالك بعد مئات وآلاف المعاصي التي ارتكبناها! فلو تفكّر الإنسان بمثل هذه القضايا، سوف يلتفت إلى ما ينبغي أن يعيشه من خجلٍ وخوفٍ بين يدي اللّه تعالى. فلو توجّه المرء إلى معاصيه وإلى ما يستحقّه من عذابٍ على ما ارتكبه، لاعترته حالة الانكسار والخشوع وظهرت عليه.

بناءً عليه، إنّ التفكّر بالمعاصي وعقوباتها، والالتفات إلى أنّه كلّما أصبح شخص الطرف المقابل ـ الذي قمنا بعصيانه ومخالفته ـ أعظم وأكبر، فإنّ جرم المعصية سيكون أكبر، ومثل هذا الأمر سيكون مؤثّرًا جدًّا في إيجاد حالة الخشوع. وقد جاء في رواياتنا أنّ من الذنوب الكبيرة الاستخفاف بالذنب، فلو ارتكب الإنسان معصيةً صغيرةً جدًّا، وهو على حالةٍ واعتقادٍ بأنّ الأمر ليس مهمًّا جدًّا لاعتُبر ذلك من المعاصي الكبيرة، وذلك لأنّه استخفّ بارتكاب المعصية مقابل اللّه. إنّ الاستخفاف بالذنب هو أسوأ من الذنب نفسه، ومن هنا قد يكون الذنب أحيانًا صغيرًا ولكنّ الاستخفاف به يبدّله إلى معصيةٍ كبيرة. فهو يدلّ على الاستهانة بعظمة اللّه والاستخفاف بأمره ونهيه، وهذا هو الذنب الأكبر، فيجب علينا أن نكون مراقبين لئلا نُبتلى بمثل هذا الذنب.

فلو تصوّرنا هذه المسائل تصوّرًا صحيحًا، فإنّ حصيلة ذلك ستكون عبارة عن بروز حالة الانكسار فينا، ما من شأنه أن يؤثّر بصلاتنا ويجعلها مصحوبةً بالخشوع. ومن جانبٍ آخر، فإنّ الصلاة التي يصاحبها الخشوع هي يقينًا ممّا يمكن أن يجبر الكثير من القبائح والنكران الذي صدر منّا تجاه اللّه. وقد جاء في الرواية أنّ العين التي تبكي من خوف اللّه وخشيته لا يمكن أن يعذّبها اللّه. من هنا، فإنّ معاصينا لو كان لها تلك الآثار السلبيّة والمضرّة فإنّ التوجّه إلى اللّه والخوف والخشية منه سيكون لها آثارًا إيجابية في المقابل، ولأجل ذلك فإنّ الخوف من اللّه عندنا هو صفة ممدوحة وحسنة وذات قيمة إيجابيّة. لقد كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يقوم

في الليالي ويبكي ويقول: «آه مِنْ قِلَّةِ الزّادِ وَطُولِ الطَّريقِ»[١].

حقًّا ما هو خوف شخصٍ كعليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وماذا تعني خشيته من اللّه؟ فإذا كان عليّ قلقٌ من قلّة الزاد، فما حال أمثالنا؟ وما الذي ينبغي أن نفعله؟ وفي الحقيقة، علينا أن نذعن ونعترف أنّنا غافلون عن تلك العوالم التي يعيش فيها عليٌّ وأمثاله. ويجب أن نعترف أنّنا لا ندركها. يمكننا أن نقترب قليلًا نحو التشبّه بها.

بناءً عليه، فإنّ أحد الطرق المؤثّرة في تحصيل الخشوع هو أن نفكّر قبل الصلاة في قبح معاصينا وعواقبها السيّئة. فأولئك الذين خبروا أدعية الأئمة ومناجاتهم عليهم السلام، وهم يواظبون عليها، سوف تتحوّل هذه الحالة بالنسبة لهم بالتدريج إلى «ملكة» ولن يحتاجوا بعدها لأن يجلسوا كل يوم لمدّة ساعة ليتفكّروا بهذه المسائل؛ فهؤلاء بمجرّد أن يقترب وقت الصلاة أو يتحرّكوا نحو المسجد تتبدّل أحوالهم، وحين يسمعون نداء «قد قامت الصلاة» ويلتفتون بمن سيلتقون، فإنّهم حالهم ينقلب ويعتريهم الخشوع.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٠، الباب ٢٢، الرواية ١٣٢، الصفحة ١٢٨.

الفصل الرابع

على عتبة المعشوق

دور «النيّة» في ارتقاء الإنسان وسقوطه

بناءً على الآيات والروايات، فإنّ أهم وظيفة ملقاة على عاتق الإنسان تجاه ربّه سبحانه وتعالى هي الصلاة. والصلاة موجودة في جميع الشرائع السماويّة المختلفة. والأهميّة التي أوليت للصلاة في كلّ هذه الشرائع لم تولَ لأيّ أمرٍ آخر، وذلك بسبب التأثير الذي يحقّقه هذا العمل المقدّس على صعيد سعادة الإنسان وكماله ورقيّه المعنويّ والروحيّ.

وتُعدّ مسألة النيّة من المسائل الفائقة الأهميّة في العبادات. وقد اعتُبرت النيّة روح كلّ عبادة، بحيث أنّ قيمة العبادة ترتبط ارتباطًا تامًّا بنية العابد. فلو لم تكن النيّة صحيحة، فمهما كان حجم تلك العبادة، فلن تجلب لصاحبها أيّ فائدةٍ تُذكر. ونحن أيضًا نعطي للنيّة أهميّةً فائقةً في أعمالنا العاديّة واليوميّة في الحياة، ونعتبر أنّ الأعمال تصبح ذات قيمة وأهميّة إذا صدرت من دافعٍ صحيح. فعلى سبيل المثال، إذا استعمل أحد أصدقائنا أثناء السؤال عن أحوالنا ألفاظًا من قبيل: «روحي فداك»، «أحبّك»، «اشتقت إليك»...، ونحن نعلم أنّ هذه الكلمات تنبع في الواقع من المحبّة والحميميّة فسوف تكون مثل هذه التعبيرات التي صدرت من محبّته ومودّته ذات قيمة عالية بالنسبة لنا. ولا شكّ بأنّ ذلك سيؤدّي إلى زيادة محبّتنا ومودّتنا له. لكن إذا علمنا أنّ هذه الألفاظ نابعة من الخداع والتلوّن من أجل استغلالنا فلن يكون هناك أي قيمة لإظهار هذه المحبة الظاهرية والعبارات، لا بل في حال تكرّرت، فإنّها سوف تزيد من انزعاجنا واشمئزازنا. فهذان الأمران بحسب الظاهر هما شيءٌ واحد، لكنّ الذي أدّى إلى هذا الاختلاف الواضح في حكمنا عليهما هو النيّة. فلو أنّ شخصًا

أظهر بعض الحركات التي تعبّر عن الاحترام والتعظيم تجاهنا، لكنّنا علمنا أنّه لا يبتغي من وراء ذلك سوى السخريّة فكيف سيكون ردّ فعلنا تجاهه؟ لا أنّنا لن نعتبرها ذات قيمة فحسب، بل سنعتبرها نقيض ذلك. بناءً عليه، إنّ هذه قاعدة عامّة حيث نجد العقلاء حين يريدون تقييم بعض الأعمال، فإنّهم لا يكتفون بالنظر إلى ظاهرها، بل يدقّقون ليعلموا بأي نيّة تمّ القيام بها. بالطبع، لو أردنا أن نحدّد في كلّ مورد، النسبة المئويّة للقيمة التي نوليها للنيّة، والنسبة المئويّة لسائر الأبعاد الأخرى، لطال البحث وخرج عن الموضوع الأصلي. فما نريد أن نبحث عنه هنا هو الصلاة.

يمكن للصلاة أن تكون منشأً لرقيّ الإنسان ووصوله إلى أعلى المراتب والدرجات التي يصعب علينا تصوّرها. فالكثير من أولياء اللّه قد وصلوا بفعل صلاتهم إلى مقاماتٍ نعجز عن إدراكها وتصوّرها وهذه الحقيقة لا يمكن إنكارها.

وقد جاء في إحدى الروايات: «الصَّلاةُ مِعْراجُ الْمُؤْمِنِ»[1]، والسؤال هنا: إلى أي مدى يمكن أن تعرج بنا الصلاة؟ يجب القول إنّ المراتب المعراجيّة التي يمكن أن تحصل في ظلّ الصلاة لا نهاية لها. ومن جانبٍ آخر، إنّ هذه الصلاة التي تُعدّ معراجًا يمكن أن تبلغ بالإنسان قعر جهنّم! فهذان الأثران المتناقضان لعملٍ واحد يرتبطان بنيّتين مختلفتين. فربّ نيّةٍ تؤدّي إلى أن ترفع الصلاة صاحبها إلى الملكوت، وربّ نيّةٍ تسقط صاحبها في قعر جهنّم. سُئل أبي عبد اللّه عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الخلود في الجنة والنار فقال: إنما خلد أهل النار في النار، لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا اللّه أبدًا، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا اللّه أبدًا، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله: «قل كل يعمل على شاكلته» أي على نيته[2].

ومن الممكن أن يكون للنيّة مثل هذا المستوى من التأثير في العمل. ومن هنا، فإنّ معيار قيمة الأعمال العباديّة وأساس روح العبادة هو النيّة. ومن المهم أن نفكّر بالنيّة التي نؤدّي العبادة على أساسها.

إنّ أهميّة النيّة ودورها في الأعمال قد يصل إلى حدٍّ نستطيع، عن طريق النيّة،

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٩، الباب ٤، الرواية ٢، الصفحة ٣٠٣.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحة ٢٠٩.

وباستثناء العبادات المصطلح عليها، أن نجعل جميع أعمالنا عبادةً! حتّى تلك الأعمال التي هي من قبيل: الأكل والشرب والنوم والاستراحة واللذة الحلال، يمكن أن تُعدّ عبادة. وبالطبع، هذا إنّما يحصل حين يكون هدفنا من وراء كل هذه الأفعال تحصيل رضا اللّه. فلو أنّنا قصدنا في كلّ قيامٍ وقعودٍ وفي كلّ عملٍ تحقيق رضا اللّه تعالى، فإنّ ذاك العمل سيصبح عبادة. وبالطبع، إنّ اختلاف العبادات الخاصّة عن سائر الأعمال، هو أنّ سائر الأعمال الأخرى إذا لم نقم بها بقصد كسب رضا اللّه، فلا يوجد مشكلة ولن تجعلنا جهنّميّين ومن أهل النّار؛ أمّا العبادات الخاصّة كالصوم والصلاة، لو تمّ القيام بها بقصد الرياء، فإنّها ستؤدّي بصاحبها إلى جهنّم.

وبخصوص الصّلاة، ينبغي أن نؤكّد مرّةً أخرى على ضرورة أن نكون حسّاسّين جدًّا تجاه النيّة، فإذا صلُحت النيّة في الصلاة ستكون جوهرةً نفيسةً تعرج بصاحبها إلى أعلى مراتب القرب الإلهيّ، بما لا يخطر على قلب بشر. وإذا كانت نيّة صلاتنا فاسدةً لا سمح اللّه، فإنّ تلك الجوهرة النفيسة لن تفقد قيمتها فحسب، بل ستتبدّل إلى عنصرٍ مضرٍّ وتسوق صاحبها إلى قعر جهنّم. لهذا، نسأل اللّه تعالى أن يوفّقنا إلى الإخلاص في جميع العبادات وخصوصًا الصلاة.

النيّة ومراتبها

مفهوم «أداء العمل للّه»

لقد علمنا أنّ النيّة هي روح العبادة. وبشكل عام إنّ قيمة كل عمل ترتبط بنيّته. ولقد أشرنا إلى أنّه في بعض الأعمال العباديّة كالصلاة، إذا كانت النيّة فاسدة، كأن تكون النيّة «الرياء» و«السمعة»، فإنّ ذلك العمل لن يكون فاقدًا للأثر وباطلًا فحسب، بل يستوجب العقاب والعذاب.

وفي بعض الأحيان، يُستعمل تعبير الخلوص مقابل الرياء، ويوجد في القرآن الكريم تعبيرات أيضًا مثل «وجه اللّه»، و«ابتغاء مرضاة اللّه» قد استُعملت. مثلما نقرأ في سورة **الإنسان** في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[1].

---

(١) سورة **الإنسان**، الآية ٩.

وقد ذُكر تعبير «ابتغاء مرضات اللّه» في عدّة موارد، ومنها ما ورد في سورة **البقرة** حيث يقول اللّه تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[١]

وفي هذا المجال، لعلّ التعبير بـ «مرضات اللّه» له مفهومٌ أوضح من التعبيرين الآخرين أي الخلوص ووجه اللّه. وهذا يعني أن نؤدّي العمل من أجل أن يكون اللّه راضيًا. أمّا الرضا بالنسبة لنا فهو حالة نفسانيّة ندركها بالعلم الحضوريّ، فحين نرضى عن عمل شخصٍ ما تعترينا حالة من الفرح والسرور، فهل أنّ رضا اللّه يعني أنّه يصبح في حالةٍ من الفرح والسرور جرّاء أعمالنا؟! من هذه الناحية، لعلّنا بعد البحث، سنجد أنّ هذا التعبير ليس أوضح بكثير من التعبيرين السابقين، وإن بدا لنا الأمر كذلك.

هناك تعبيرٌ آخر يستعمله أكثر الفقهاء، وهو الذي يعبّرون عنه بأنّ العبادة يجب أن تؤدّى «بقصد الامتثال». و«الامتثال» بمعنى الالتزام بالأمر. و«قصد الامتثال» يعني إنّنا نؤدّي عملًا ما لأنّ اللّه أمر به ومن أجل طاعة أمره. والأمر أعم من «الوجوب» و«الاستحباب».

وعلى أيّ حال، فإنّ هذا المفهوم أيضًا وإن كان واضحًا بالنسبة لنا تقريبًا، لكن يبرز هذا السؤال مرّة أخرى وهو: ما هي الحالة التي ينبغي أن نحقّقها في أنفسنا لكي نقول إنّنا قد أدّينا هذا العمل «بقصد امتثال» الأمر الإلهيّ.

تعبيرٌ آخر، شائعٌ بيننا كثيرًا، هو «قربة إلى اللّه». فالكثير من الناس حين يريدون أن يصلّوا يقولون: «أصلي ركعتي الصبح قربةً إلى اللّه»، والقربى من القرب والاقتراب، وعلى هذا الأساس، فإنّ هذا يعني أنّنا نؤدّي العبادة قربةً إلى اللّه أي لنقترب منه، ولكن ما معنى القرب من اللّه؟ فهل أنّ اللّه تعالى موجودٌ في مكانٍ حتّى نقترب منه؟! بناءً عليه، فإنّ هذا المفهوم لا يخلو من الإبهام أيضًا، ولا مجال لذكره في هذا البحث الذي نرجو منه الفائدة ذات الأثر العمليّ وعدم الاستطراد في الأبحاث الفلسفيّة والنظريّة التي يطول بها الشرح.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٥.

أنواع النيّة

أحد معاني النيّة في العبادة هو أن يتوجّه الإنسان أثناء القيام بالعمل إلى ما يقوم به، لكي يهيّئ الأرضيّة المناسبة لطرح هذا السؤال وهو: هل أنّ هذا العمل ممّا أمر به الشرع المقدّس؟ وهل أنّ اللّه تعالى يرضى عن هذا العمل؟ وفي مقابل هذه الحالة، قد يقوم الإنسان بالعمل من دون نيّة. ومن الممكن أن يطرأ هذا التساؤل على الذهن، وهو هل يمكن للإنسان أن يؤدّي عملًا من دون نيّة؟ والجواب على ذلك هو: لعلّ مثل هذا الأمر نادرٌ جدًّا. ففي الظروف العاديّة وحين يكون الإنسان في حالة من الانتباه والسلامة الذهنيّة، لا شكّ أنّه سيجعل لكلّ عمل من أعماله قصدًا ونيّة، لكن إذا أُغشي عليه ولم يكن صاحيًا تمامًا، كما يحصل للإنسان الذي يكون في حالةٍ قريبةٍ من النوم أو على أثر شرب المسكر، فإنّه لا يدرك ماذا يفعل، وبالتالي قد لا يكون في ذهنه أيّ قصدٍ أو نيّة. وعلى أيّ حال، فإنّ الإنسان إذا أدّى عبادةً ما في مثل هذه الأحوال، كالصلاة مثلًا، فإنّه وإن قام بكلّ واجباتها وراعى جميع شروطها، ولكن بما أنّه لم يكن صاحب نيّةٍ فإنّ عمله يكون باطلًا، فمثل هذه الصلاة تشبه تلك الأعمال التي يقوم بها بعض الأشخاص في حال النوم، وإذا سُئلوا فيما بعد، ماذا فعلتم؟ فإنّهم لا يتذكّرون شيئًا.

والفرض الآخر للنيّة في العبادة هو أن يؤدّيها الإنسان فقط لأجل بعض المقاصد والآثار الدنيويّة، مثل صلاة أولئك المنافقين في زمان النبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. فقد أسلم هؤلاء فقط من أجل أن يحفظوا أنفسهم، ومن أجل أن تجري عليهم سائر الأحكام الإسلاميّة والظاهريّة (كالإرث والزواج و...). وكانوا يقومون بالآداب والعبادات الإسلاميّة لكي يحفظوا أنفسهم وأموالهم ويتمتّعوا بسائر الامتيازات والمكاسب ولولا ذلك لم يصلّوا قطعًا. فلا شكّ بأنّ هذه الصلاة باطلةٌ.

ومن جانبٍ آخر، فإنّ هذه القضيّة واضحة ومسلّمة، وهي أنّ الدافع في جميع الأفعال التي يؤدّيها الإنسان هو جلب المنفعة أو دفع الضرر. وبالطبع، من الممكن أن يتفاوت الناس فيما بينهم من ناحية مصاديق النفع والضرر، فيعتبر شخصٌ شيئًا ما منفعة في حين يراه آخر ضررًا. ولكنّ سعي الإنسان في كلّ عملٍ من أجل جلب المنفعة ودفع الضرر أمرٌ قطعيٌّ. فالأعمال التي نقوم بها، إمّا أن تكون لأجل اكتساب الأموال، أو تحقيق الاحترام والمنزلة في المجتمع، أو الوصول إلى مقامٍ ومنصب أو لكي لا نغرَّم أو نعاقَب. ومثل هذا الأمر يصدق أيضًا في مجال العبادات وبالخصوص

الصلاة. فأكثر الذين يعبدون اللّه ويصلّون، وإن كانوا في الواقع يقصدون العبادة والطاعة لأمر اللّه في أدائهم لهذه الأعمال لكنّ هذا لا يعني أنّ منافع أداء العبادة أو أضرار تركها ليست دخيلةً في دوافعهم ونواياهم. وبعض هذه الآثار قد تكون دنيويّةً، مثل أن يكونوا قد اختبروا البركة التي تمنحها الصلاة لحياتهم، أو ما تدفعه الصدقة من بلاءات، وفي بعض الأحيان تكون آثارًا أخرويّة. وقلّما نجد أشخاصًا يصلّون ولا يوجد فيهم طمعٌ في الجنّة وخوفٌ من العذاب من وراء مثل هذا العمل الذي يُعدّ طاعةً للّه. فأكثر الذين يصلّون إنّما يفعلون ذلك لأنّهم يعلمون أنّ اللّه يعذّب تارك الصلاة في جهنّم، فلو لم تكن جهنّم موجودةً لما صلّى أكثر الناس.

وصلاة بعض الأفراد تكون من أجل الوصول إلى الجنّة. فلو صلّى هؤلاء فذلك لأنّهم يعلمون أنّ اللّه موجودٌ وعنده جنّة ذات نعيم مقيم لا يمكن وصفه، وهذه الجنّة هي ثواب من يعبده ويطيعه، فصلاة هذه الفئة من أجل ألّا يُحرموا من ذلك الثواب، ولو لم يكن هناك جنّة وثواب لما عبدوا اللّه حتمًا، ولما أدّوا الصلاة.

بالطبع، لا شكّ أنّ هناك عبادٌ مقرّبون لا يمكن مقارنة صلاتهم وعباداتهم بعبادات الأشخاص العاديّين. فهؤلاء ليس في عباداتهم وصلاتهم أيّ طمعٍ بالجنّة أو خوف من العذاب. فحتّى لو لم يكن هناك جنّة ولا نار، لما تركوا عبادة اللّه. وفي بعض المضامين التي نُقلت عن أئمّة الهدى وحضرات المعصومين عليهم السلام، أنّهم كانوا يقولون أثناء توجّههم إلى اللّه، إلهي! حتّى لو أنزلت عليّ صنوف البلاء والمصائب فلن أترك عبادتك وطاعتك. يجب علينا أن نطلب من اللّه تعالى وأن نسعى كل جهدنا لكي تصبح عباداتنا وطاعاتنا قريبة من مثل هذه المراتب. ولكن على أيّ حال، لا شكّ بأنّ الكثير من مثل هذه العبادات والطّاعات، هي بسبب الطمع بالجنة أو الخوف من جهنّم، بحيث أنّه لو لم يكن للّه جنّة ولا نار، لأصبحت نسبة العابدين والمطيعين نادرة جدًّا تكاد تقارب الصفر. وبحثنا هنا يدور حول هذا النوع من العبادات، فما هو حكمها بحسب الأحكام والمعارف الإسلاميّة؟

النيّة الصحيحة والمقبولة

بحسب بعض الروايات تمّ تقسيم العبّاد إلى ثلاث فئات. وبحسب هذه الروايات، فإنّ عبادة البعض تكون «عبادة العبيد»، ولأنّ العبد يخاف من سيّده ومالكه

ويحسب له الحساب فإنّه يطيع أمره. وهناك فئة من النّاس لأنّها تخاف من اللّه ومن عذابه، فإنّها تعبده وتطيعه، وقد سمّت الروايات هذا النوع من العبادة، عبادة العبيد. أمّا عبادة الفئة الأخرى فهي «عبادة التجّار»، لأنّ التاجر والكاسب إذا أراد أن يجري أي معاملة فإنّه ينظر إلى ما تعطيه إيّاه من عوائد وأرباح ومنافع. وبعض النّاس يعبدون اللّه على هذا الأساس، فهم يحسبون أنّهم سينالون كذا وكذا مقابل العبادة، وأنّهم سينتفعون بكذا وكذا؛ وهؤلاء لأنّهم يرون أنّهم سيحصلون على الجنّة لقاء هذه العبادات فإنّهم يعبدون اللّه. فهؤلاء يتاجرون، ويصومون ويعطشون ويجوعون لساعات، ويصلّون، ويجاهدون، ويعرّضون أرواحهم للخطر في سبيل اللّه، ولكنّهم جميعًا يفعلون ذلك لأنّهم يعلمون أنّهم سيحصلون جرّاء ما يقومون به على مئات الأضعاف من الثواب.

ونجد القرآن الكريم يحثّ الناس ويرغّبهم بأعمال الخير والطاعة مستفيدًا من هذه الأدبيّات. على سبيل المثال، يقول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1].

فقد استُعمل في هذه الآية لفظ التجارة. وفي موارد أخرى استُعمل لفظ البيع والشراء كما يقول تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾[2].

وعلى أيّ حال، يُستفاد من القرآن والروايات أنّ مثل هذه العبادة مقبولة، وأنّ الطمع بالجنّة أو الخوف من جهنّم لا يخلّ بخلوص النيّة التي ترتبط بقيمة العبادة. فلو وصل الإنسان إلى هذه المرتبة وكان يؤمن حقًّا بالجنّة والنار، ويعمل على هذا الأساس، فهذه ليست بالمرتبة القليلة؛ بالطبع، ينبغي أن تكون وجهة نظره وهمّته متعلّقةً بتلك الدرجة التي يعبد اللّه فيها فقط وفقط لأنّه اللّه، بحيث أنّه حتّى لو لم تكن كلٌّ من الجنة والنار موجودتين، فإنّه لن يقلع عن طاعة اللّه وعبادته.[3] ولعلّ

---

(١) سورة **الصف**، الآيات ١٠-١١.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ١١١.

(٣) ومن بين هؤلاء فئة رابعة برزت في زمانها يقولون لا نعبد اللّه لأجل الجنة أو خوفًا من اللّه وذلك لأنّ =

أكثر الروايات المشهورة في هذا المجال هي ما ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ وهو ما ذكرناه سابقًا في مناسبةٍ أخرى، حيث يقول عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللّه رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ التُّجارِ، وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدوا اللّه رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ الْعَبيدِ، وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدوا اللّه شُكْرًا فَتِلْكَ عِبادَةُ الأحرار»[1].

أمّا فيما يختصّ بعبادة الأحرار، فهم أولئك الذين تحرّروا من قيد الجنّة، وقيد جهنّم، وقيد الخوف من العذاب، وقيد الطمع بنعم الجنة ونعيمها. فهؤلاء أشخاص مستعدّون لتحمّل كل أنواع المصاعب والعذابات الأخرويّة إذا كان ذلك يرضي اللّه تعالى. فالأمر الوحيد بالنسبة لهم هو رضا اللّه ومحبّته. وقد جاء في حديث المعراج أنّ روح المؤمن أثناء عروجها إلى العرش تقول: «وعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لَوْ كانَ رِضاكَ في أَنْ أُقَطَّعَ إِرْبًا إِرْبًا وَأُقْتَلَ سَبْعينَ قَتْلَةً بِأَشَدِّ ما يُقْتَلُ بِهِ النّاسُ لَكانَ رِضاكَ أَحَبَّ إِلَيَّ»[2].

إنّ التلفّظ بهذا الكلام أمرٌ سهلٌ ولكنّ العمل به لن يكون شأن أيّ شخص. فلو أنّ الإنسان عُذّب لمدّة ساعةٍ واحدةٍ لأدرك حينها شيئًا من عظمة هذا الكلام. وفي دعاء كميل يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «فَهَبْني يا إِلهي وَسَيِّدي وَمَوْلايَ وَرَبّي صَبَرْتُ عَلى عَذابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلى فِراقِكَ».

من الممكن أن نتلو هذا الكلام بصورة شاعريّة ولكن لا شكّ بأنّ عليًّا عَلَيْهِ‌السَّلَامُ كان يتلفّظ به من عمق وجوده ويصدر منه على الحقيقة. فبالنسبة لعليّ عَلَيْهِ‌السَّلَامُ،

= مثل هذه الأخلاق هي أخلاق دفاعية ومصلحيّة واختلاف هؤلاء مع أولياء اللّه الذين يعبدون اللّه على هذه الشاكلة، فإنّ اختلافهم معهم في أنّهم لا يعتقدون من الأساس لا بالجنة ولا بالنار، ولأنهم لا يحملون مثل هذا الاعتقاد بالجنة ولا بالنار فمن الطبيعي أنّ أعمالهم لن تُبلتى بمثل هذا الأمر أي الوصول إلى هذا أو النجاة من ذاك. هذه الطائفة تقول إنّه إذا ذُكرت الجنة أو النار في الروايات فذلك من أجل أن توجد في الناس ذلك الدافع الذي يجعلهم يتمسّكون بتلك الأصول الأخلاقية والإنسانيّة، أمّا الواقع فإنّه لا وجود للجنة ولا للنار! فلو قال هؤلاء أنّنا لا نعبد اللّه بدافع الخوف فذلك لأنّه لا يوجد أي نوع من الخوف في وجودهم، بل إنّهم في الواقع لا يؤمنون باللّه حتى يخافون أو لا يخافون.

(١) خطب الإمام علي عَلَيْهِ‌السَّلَامُ، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ٤، الصفحة ٥٣.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الباب ٢، الرواية ٦، الصفحة ٢٧.

إنّ البعد عن اللّه هو أشدّ إيلامًا وعذابًا من أي عذابٍ آخر. أولئك الذين ابتُلوا بأنواع العشق والمحبّة الشديدة العميقة، يعلمون كم يؤثّر رضا المحبوب على حياة الإنسان وأحواله، وماذا يفعل به. فكم من محبٍّ وعاشقٍ مستعدٍّ لأن يقضي ليلًا بطوله في الصقيع الشديد واقفًا على قدميه عسى أن ينال من محبوبه بسمةً أو نظرة. فتلك البسمة وتلك النظرة تزيل كلّ تعب ومصاعب تلك الليلة الطويلة. وأولياء اللّه لأنّهم يعلمون أنّ محبوبهم سيرضى فإنّ تحمّلهم لكل أنواع الصعاب والعذابات سيكون سهلًا حتّى لو كان ذلك عذاب جهنّم.

خطوة عمليّة نحو تصحيح النيّة

لقد تحدّثنا لحدّ الآن حول ضرورة الارتقاء بمعارفنا ووعينا بشأن الصلاة، وأشرنا إلى بعض الروايات التي وردت بشأن أهميّة الصلاة. ولكن هل يكفي أن نطالع تلك الكتب التي أُلّفت بشأن الصلاة والعبادة وأن نطالع الرواية التي تشير إلى أنّ «الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوع، فمن شاء استقلّ ومن شاء استكثر»[١]، أو « الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيّ»[٢]، من أجل أداء الصلوات المستحبّة وإخلاص النيّة في الصّلاة والاهتمام بها؟ كثيرون هم الذين يعرفون أهميّة الصلاة ومكانتها وقد سمعوا الكثير من الروايات حول الصلاة وأدائها وحول فضائلها الكثيرة. هؤلاء يعلمون كم أنّ الصلوات المستحبّة. وخصوصًا صلاة الليل. ذات أهميّة وقيمة، ويعلمون مدى تأثير ذلك على سعادة الإنسان ونجاحه، ولكنّهم يقصّرون ولا يؤدّون الصلوات المستحبّة وخصوصًا صلاة الليل. لهذا، فإنّ مجرّد المعرفة والاطّلاع لا يكفيان ويجب أن يُضاف إليهما أرضيّةً أخرى يحقّقها الإنسان بنفسه لكي يقوم بأداء العبادات الخالصة للّه ويستفيد من أي فرصة تسنح له لتعميق عبوديّته للربّ المتعال. نجد أنّ التلميذ والطالب الجامعيّ يدرسان طيلة العام الدراسيّ من أجل النجاح والحصول على العلامات الجيّدة، ومن الممكن في بعض الأحيان أن يسهرا طوال الليل من أجل الامتحان في اليوم التالي، ويستمرّان بالمطالعة حتّى انبلاج الصبح، ولكنّنا رغم معرفتنا بأهميّة الصلاة وقيمتها، فإنّنا غير مستعدّين لتخصيص عدّة دقائق من وقتنا لأجل أداء الصلوات

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٩، الباب ٤، الرواية ٩، الصفحة ٣٠٨.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٧٨، الباب ٢٣، الرواية ٤١، الصفحة ٣٠٧.

المستحبّة، هذا مع أنّ مثل هذا العمل سهلٌ وليس فيه تلك المشقّة. ولعلّ أوّل جوابٍ يطرحه كلّ إنسان يقصّر في المستحبّات ولا يهتم بالصلاة هو أنّ الشيطان لا يسمح له بأن يؤدّي المستحبّات ويستفيد استفادة صحيحة من عبادة اللّه. ولكن ينبغي أن نقوم بعمليّة تحليل نفسيّ لهذه القضيّة لكي ندرك السبب وراء عدم الاعتناء وقلّة التوجّه إلى الأمور المعنويّة ومن ضمنها قضيّة الصلاة. فإذا كنّا نعرف أنّ الصلاة هي أفضل الأعمال وأربح التجارات، وأنّنا في مثل هذه التجارة لن ننفق سوى عدّة دقائق من أوقاتنا لكي نصل إلى القرب الإلهيّ، الذي لا يمكن مقارنة عظمته وقيمته بأي شيء آخر، فلماذا لا نقوم بمثل هذه التجارة الكثيرة الربح؟

من الواضح أنّ الإنسان لا يؤدّي العمل لمجرّد نفعٍ أو ربحٍ فيه فحسب، بل يقوم بدراسة جميع الجوانب ويحدّد كلّ المضرّات والصعاب وفي بعض الأحيان اللوازم والتبعات الثقيلة فيه، ثمّ بعد ذلك يقوم بمقارنة الربح والنفع مع ما سيتحمّله من نفقات، فإذا رجحت كفّة الربح والنفع يقدم على العمل أو التجارة، ولكن في مورد أداء عدّة ركعات من الصلاة، من الواضح أنّنا لن نتحمّل تلك الأعباء والمشقّات الكثيرة، وفي الأساس فإنّ ما نقدّمه من تعبٍ ومشقّةٍ في الصلاة لا يمكن أن يُجعل مقابل عظمة وقيمة ما نحصّله فيها، فلماذا لا نؤدّيها؟

إنّ الإجابة الواضحة عن هذا السؤال المطروح هو أنّ العادات الجارية في سلوك الأفراد هي التي تمنعهم من أداء الأعمال المعنويّة المهمّة والقيام بعبادة اللّه بما هو حقٌّ لها. لقد اعتدنا في هذه الحياة على مجموعة من اللذائذ لذلك نهمل القيام بأي عمل يعارض تلك اللذات، فالذي اعتاد على الراحة والبطالة والنوم وهو يلتذّ بهذه الأمور الدنيويّة الضحلة، فإنّه وإن لم يقارنها بالثواب الذي يمكن أن يحصل عليه في الصلاة ولكن لا يمكنه أن يترك عادته تلك. ولهذا، فإنّ التذاذاته القليلة الضئيلة الزائلة ستمنعه من القيام بتلك الأعمال المهمّة والقيّمة. كما أنّ العادات اليوميّة تمنع من تحصيل النيّة الخالصة في العبادة، وتحقيق المزيد من التوجّه فينا إلى اللّه، وهذه العادات هي أدوات الشيطان التي بواسطتها يمنعنا من الوصول إلى الفلاح والسعادة. لهذا، يجب علينا أن نواجه تلك العادات التي تحول بيننا وبين القيام بالأعمال المهمّة والمفيدة ونبعدها عن أنفسنا.

والخطوة الأولى على هذا الطريق هي الاطّلاع على المعارف المرتبطة بالمنافع

التي تترتّب على التخلّص من العادات العبثيّة والضحلة وأداء العبادات والتوغّل في العبوديّة للّه واكتساب الإخلاص في العمل.

أمّا الخطوة الثانية فهي مجاهدة النفس بتلك المجاهدة الطويلة والمريرة ومجاهدة الاعتياد على الأمور الحيوانيّة المنحطّة والدنيويّة. فعلى سبيل المثال رغم أنّ النوم الزائد يؤدّي إلى الكسل ويحمل معه الكثير من الضرر للإنسان، لكنّ البعض يعتادون عليه بحيث لا يكونون مستعدّين للنهوض من فراشهم قبل طلوع الشمس لأداء الصلاة، ولهذا فإنّ عادتهم السيّئة تلك تمنعم من أداء التكليف الواجب عليهم. لهذا، فإنّ على هؤلاء إذا أرادوا الوصول إلى الدرجات المعنويّة أن يواجهوا تلك العادة، وأن يرجّحوا صلاة الليل وصلاة الصبح في أوقات فضيلتها على لذّة النوم. كما أنّ البعض يعتادون على التخمة وملء المعدة بالطعام ويأكلون كل ما يرغبون به، ولا شكّ أنّ مثل هذه العادة يمكن أن تكون منشأ الكثير من الانحرافات ومانعًا من القيام بالأمور المهمّة. فمن الضروريّ إذًا أن يواجه الإنسان تلك الأمور ويسعى لتناول ما هو ضروريٌّ لبدنه من الطعام والشراب ويجتنب الإفراط والإسراف في الأكل والشرب.

فالمرحلة الثانية لتحصيل قصد القربى والوصول إلى الإخلاص في العبادة تكمن في مواجهة العادات الدنيويّة السيّئة، وبالطبع إنّ هذه المواجهة وهذا الجهاد صعبٌ جدًّا ويحتاجان إلى جهادٍ وعزمٍ كبيرين وإلى تخطيطٍ وخصوصًا مع تقدّم الإنسان بالعمر حيث تصبح مواجهة تلك العادات والخصال أشد صعوبة. فبالنسبة للشباب الذين لم تصبح تلك العادات خلقًا راسخًا أو متجذّرًا فيهم، فلن تكون مواجهتها وجهادها صعبًا إلى ذلك الحدّ. أمّا بالنسبة لأولئك الذين أصبحوا في أعمار الخمسينات والستينات، فإنّ مواجهة تلك العادات التي تجذّرت في وجودهم سيكون أمرًا صعبًا جدًّا، ولهذا فإنّ حضرة الإمام قدس سرّه كان غالبًا ما يخاطب الشباب في دروسه الأخلاقية: اعرفوا أيّها الشباب قدر وقيمة الشباب فما دمتم في هذه المرحلة انهضوا للعبادة ولبناء الذات لأنّكم إذا أصبحتم في سنّ الشيخوخة فإنّه سوف يُسلب هذا التوفيق منكم. ولم نكن في تلك الأيّام ندرك معنى كلام الإمام ولم نكن نشخّص الفارق بين الشيخ العجوز والشاب على صعيد الاستفادة من مجالات العبادة وبناء الذات. والآن ندرك أنّ الإنسان ما دام شابًّا، كم يكون لديه من توفيقات وإمكانات ولكنّه إذا وصل إلى سنّ الشيخوخة فإنّه سوف يُحرم منها.

وباختصار، علينا من أجل بناء أنفسنا وتحصيل قصد القربى في الصلاة والقيام بعبادة اللّه كما يليق، بالإضافة إلى الاهتمام بأداء الصلوات الواجبة، القيام بالصلوات المستحبّة والسعي بالتدريج إلى تخليص نيّتنا من الشوائب غير الإلهيّة ومن شائبة الرياء ومن كلّ ما يؤدّي إلى الشرك. ومع إخلاص النيّة وتعميقها نعبّد طريقنا للوصول إلى درجات أعلى من العبوديّة للّه. بالطبع، ينبغي أن نستفيد من هذين العاملين عند السير على هذا الطريق الشاق والصعب: أحدهما اكتساب المعرفة والوعي، والارتقاء بهما أي معرفة فوائد العبادة. وبالخصوص الصلاة . ومضار تركها، حيث يتكفّل علماء الفقه والأخلاق ببيان ذلك، والعامل الآخر هو مواجهة العادات السيّئة مثل الكسل وحبّ الراحة وحبّ الطعام وغيرها من الصفات الأخلاقية الرذيلة التي تسلّلت إلى نفس الإنسان.

مراتب النيّة العالية

لقد ذكرنا أنّ أبرز صفة للعبادة هي أن يكون الإنسان في عبادته غير طامع بالجنّة ولا خائفٍ من جهنّم، ولكن لهذا المقام نفسه مراتب ودرجات كثيرة، وكلّ الذين يصلون إلى مثل هذا المقام لا يكونون في مرتبةٍ واحدة، ومن هنا جاءت التّعبيرات المختلفة حول هذا المقام في الروايات الشريفة، وفي روايةٍ نقلناها عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورد تعبير «شكرًا» في الإشارة إلى هذه الفئة وذاك، حين قال عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ فئةً عبدت اللّه «شكرًا».

فلا يوجد هنا طمعٌ بالجنّة ولا خوفٌ من جهنّم يحملهم على الرّكوع والسّجود لكنّهم يعبدون اللّه لأجل أن يشكروه على نعمه.

فهذه هي روحيّة العرفان الجميل التي تحرّكهم نحو العبادة والطّاعة، فبالنسبة لهؤلاء حتّى لو لم يكن هناك جنّة أو نار فإنّهم لا يتراجعون عن عبادة اللّه، وذلك لأنّ وجدانهم لا يمكن أن يرضى بالتغافل عن كل هذه النّعم الإلهية ولا يشكر اللّه عليها. فروحيّة تقدير وعرفان الجميل هي ذاك الشيء الذي نُدركه بنحوٍ ما في مورد الأشخاص والخدمات التي يقدّمها هؤلاء، وفي بعض الأحيان فإننا نعظّم ذاك الذي قدّم لنا خدمةً ما، وذلك لأنّ فطرتنا الإنسانيّة لا ترضى بأن لا نكون شاكرين لخدماته.

وقد أُشير إلى هذه المسألة في كتاب اللّه العزيز كما في قوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

ولعلّ النّكتة في مجيء شكر اللّه مع شكر الوالدين هو أنّ الإنسان في البداية يدرك قيمة أعمال وخدمات الوالدين أكثر من أيّ عمل أو خدمة أخرى، ويكون كلّ ذلك بالنسبة له مشهودًا ومحسوسًا بشكلٍ كامل، فهو يرى كيف تتحمّل الأمّ كل ذلك العناء من أجل تربية طفلها وهنائه وتسهر الليالي وتواجه كل الصعوبات، وهو يشهد كيف أنّ والده يتعب كل تلك الأوقات في الحر والبرد، ويقضي الساعات الطويلة في العمل ويتعرّق من أجل تأمين أسباب راحة أُسرته، فإنّ الإنسان يكون مستعدًّا تمامًا لشكر والديه، ولهذا فإنه إذا أُمر بذلك فسوف يتقبّل الأمر بسهولة، وحين يصبح جاهزًا في مقام تقدير وشكر والديه على أعمالهما وخدماتهما فإنّ هذه الروحيّة الشاكرة ستقوى شيئًا فشيئًا في نفسه وتصبح بصورة ملكةٍ راسخةٍ، ويكون على أساسها شاكرًا ومقدّرًا لكلّ من يقدّم له أي خدمة أو يمنحه نعمة، من هنا فإنه حين يلتفت إلى أن جميع النعم صادرةٌ من اللّه، وأن أكثر وأعظم الخدمات قد قدَّمها اللّه له فإنّه سوف يتوجّه نحو شكر اللّه تعالى .

والتعبير الآخر الذي ذُكر بشأن هذا المقام هو التعبير «حبًّا».

ففي رواية عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «...ولكنّي أعبده حبًّا»[2]، فلو وُجدت رابطة المحبّة بين شخصين بكل ما تعنيه المحبّة من معنى، وأصبحت هذه الرابطة قوية وشديدة، فلن يكون المحبّ حينها بوارد التّفكير بتحصيل المنافع من محبوبه، بل على العكس فإنّه يريد أن يقوم بأيّ عملٍ أو خدمةٍ يقدر عليها لأجل محبوبه، من دون أن يتوجّه لحظةً واحدةً إلى تحصيل أي ثواب أو إحسان من جانب المحبوب، فمن لوازم المحبّة الخالصة الشديدة هي أنّ المحب لا يتوجّه بعدها إلى نفسه، وهو لا يرى أمامه سوى صورة المحبوب فيجعل كلّ وجوده وقفًا له، وفي مثل هذه الرابطة، لن يكون المحبّ بصدد التّفكير فيما يمكن أن يناله من عذابٍ هنا أو جنةٍ وحورٍ هناك، بل سيكون كلّ توجّهه نحو المحبوب ورضاه.

---

(١) سورة لقمان، الآية ١٤.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الباب ٤٣، الرواية ٩، الصفحة ١٨.

وهناك تعبيرٌ آخر في هذا المجال هو تعبير «أهلًا» فقد روي عن أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ أنّه قال: «ما عَبَدْتُكَ خَوْفًا مِنْ نارِكَ ولا طَمَعًا فى جَنَّتِكَ لكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبادَةِ فَعَبَدْتك»[١].

فهو عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ لا يرى غير اللّه أهلًا للعبادة، فإذا لم أعبدك أنت فمن الذي أعبد وإذا لم أعلّق القلب بك فمن أحب؟

السير التدريجيّ في تكميل النيّة

على أيّ حال، هذه مراتب ومفاهيم مختلفة تتناسب مع مستوى فهم المخاطبين المختلفين، وينبغي أن نبدأ من المراتب الدانية، ثم نتدرّج للوصول إلى المراتب العالية، وأُولى المراحل هنا هي الخوف من النّار ومن العذاب، فإنّ الكثير من المناجاة المنقولة عن الأئمّة عليهم السلام هي في هذه الأجواء، هنا نجد الإمام السّجّاد عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ يناجي ربّه بتلك المناجاة المرويّة في دعاء أبي حمزة الثمالي: «فَمَنْ يَكُونُ أَسْوَأَ حالًا مِنّي إنْ أَنَا نُقِلْتُ عَلى مِثْلِ حالي إلى قَبْري، لَمْ أُمَهِّدْهُ لِرَقْدَتي، وَلَمْ أَفْرُشْهُ بِالْعَمَلِ الصّالِحِ لِضَجْعَتي، وَمالي لا أَبْكي وَلا أَدْري إلى ما يَكُونُ مَصيري، وَأَرى نَفْسي تُخادِعُني، وَأَيّامي تُخاتِلُني، وَقَدْ خَفَقَتْ عِنْدَ رَأسي أَجْنِحَةُ الْمَوْتِ، فَمالي لا أَبْكي أَبْكي، لِخُروجِ نَفْسي، أَبْكي لِظُلْمَةِ قَبْري، أَبْكي لِضيقِ لَحَدي، أَبْكي لِسُؤالِ مُنْكَر وَنَكير إيّايَ، أَبْكي لِخُرُوجي مِنْ قَبْري عُرْيانًا ذَليلًا حامِلًا ثِقْلي عَلى ظَهْري»[٢].

فلو صدّق الإنسان بالقبر والقيامة والمخاطر والمهالك والعذابات والمخاوف التي توجد فيها لكان ذلك كافيًا بالنسبة له للمداومة على ذكر اللّه، وعدم التوجّه إلى معصيته، فهذه المهالك والعذابات الكثيرة قد أُشير إليها في القرآن الكريم نفسه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾[٣].

وحين يعطش من شدّة الحرّ والنّار فلن يكون له من شرابٍ سوى ذاك الصديد

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الباب ٥٣، الرواية ١، الصفحة ١٨٦.

(٢) **مفاتيح الجنان**، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٣) سورة **الحاقة**، الآيات ٣٠-٣٢.

الذي يغلي من شدّة حرّه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾[١]، ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾[٢].

نظرة إلى آذان الصلاة

إنّ التّفكر في محتوى ومضمون الصلاة، والتّعرّف على العناصر المعنويّة لهذا المرهم الإلهيّ تعيننا على أداء صلاتنا بصورة أفضل، والاستفادة منها أكثر حيث إنّنا في مثل هذه الحالة سنجعل سائر عبادتنا مقبولة.

وفي الصلاة حركاتٌ وأفعالٌ كالقيام، والركوع، والسّجود، والجلوس حال التشهد، وقراءات مختلفة يمكن تقسيمها أيضًا إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: الأذكار مثل «اللّه أكبر»، «الحمد للّه»، «سبحان اللّه».

الفئة الثانية: قراءة القرآن الواجبة في الركعة الأولى والركعة الثانية وهي سورة الحمد وسورة أخرى من القرآن.

الفئة الثالثة: الأدعية كالتي تُقال في القنوت والركوع والسجود، وأيضا قبل الصلاة أو في تعقيباتها وإن لم تكن واجبة.

«التكبير في الأذان والصلاة»

اللّه أكبر

ومن بين أذكار الصلاة، التي يتم تكرارها أكثر من الكل، وإذا لم يتم بدء الصلاة بها فإنّ ذلك موجب لبطلانها هو «التّكبير». فكلّ مصلٍّ يكّرر التّكبير في آذان الصلاة ستّ مرات وفي الإقامة أربع مرّات، ثمّ يبدأ صلاته بتكبيرة الإحرام، وفي فواصل الصلاة وبعد أداء كلّ عملٍ يُستحبّ التكبير، كما إنّه بعد إنهاء الصلاة يُستحب أنّ يكبّر الإنسان ثلاث مرّات كما إنّنا نذكر هذا التّكبير في تسبيحة الزهراء عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ التي هي من تعقيبات الصّلاة أربع وثلاثين مرة.

---

(١) سورة **إبراهيم**، الآية ١٦.

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ٧٠.

أشهد أن لا إله إلاّ اللّه

والفصل الثّاني للآذان والإقامة هو الشّهادة بالتّوحيد، أي ذكر «أشهد أنّ لا إله إلّا اللّه». وقد كان الشعار الأساسي للرسول الاكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هو الشّهادة بالوحدانيّة، وقوله: «قُولُوا لا إلهَ إلّا اللّه تُفْلِحُوا»[1]، وفي القرآن أيضًا، وردت مضامين متعدّدة تذكر أنّ الشّعار الأساسيّ لجميع الأنبياء هو كلمة التّوحيد والشهادة بالوحدانيّة، وفي «حديث سلسلة الذّهب» ذُكرت أهمية ومكانة شعار التّوحيد بوضوح، ففي سفره من المدينة إلى مرو، وحين وصل الإمام الرضا إلى نيشابور، فقد نقل جمع من العلماء والمحدّثين عن آبائه عن رسول اللّه عن اللّه تعالى أنّه قال: «كَلِمَةُ لا إلهَ إلّا اللّه حِصْنِي فَمَنْ قالَهَا دَخَلَ حِصْنِي وَمَن دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي»[2].

سؤالٌ أساسيّ

لقد أُنجزت أبحاثٌ كثيرةٌ حول حقيقة التوحيد ومراتبه. بالطبع، إنّ عرض هذه الأبحاث في هذا الكتاب غير ممكنٍ ولكن لا بدّ من الإجابة عن هذا السؤال الأساسيّ وهو: ما هي أهميّة كلمة التوحيد بحيث تمّت العناية بها في مقدّمات الصلاة وفي أجزائها الواجبة إلى هذا الحدّ؟ فنحن في الآذان وبعد التكبير، نشهد بالتوحيد مرّتين، وكذلك في آخر الآذان نفعل ذلك مرّة أخرى، وكذلك في الإقامة حيث نقول ثلاث مرّات: «لا إله إلّا اللّه»، وفي التشهّد الصلاتيّ نقول أيضًا: «أشهد أن إله إلّا اللّه». ومن جانبٍ آخر، ننظر إلى اهتمام النبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وتأكيد الأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على هذا الشّعار، كما جاء في الحديث المنقول عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أبيه الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «كان أبي كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنّه ليذكر اللّه، وآكل معه الطعام وإنّه ليذكر اللّه، ولقد كان يحدّث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر اللّه، وكنت أرى لسانه لازقًا بحنكه يقول: «لا

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٨، الباب ١، الرواية ٣٢، الصفحة ٢٠٢.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٩، الباب ١٢، الرواية ٣، الصفحة ١٢٧.

إله إلا اللّه»[١]. والآن يُطرح هذا السؤال: لماذا تمّ التركيز إلى هذا الحدّ على ذكر: «لا إله إلا اللّه»، وإعلان وحدانيّة اللّه؟

والجواب الإجماليّ عن هذا السؤال هو أنّ حقيقة الإسلام عبارة عن التوحيد، فقد كان المرحوم العلّامة الطبطبائي يقول في هذا المجال: «إنّنا لو جمعنا كل أبعاد الإسلام وأدغمناها معًا لوصلنا إلى كلمة «لا إله إلّا اللّه» ولو فصّلنا في هذه الكلمة لوصلنا إلى جميع معارف الإسلام، بناءً عليه فإنّ جميع المعارف الإسلاميّة ليست سوى تفصيل لكلمة التوحيد». لكنّ تصوّر هذا الحديث وتصديقه وفهمه في عين جماله يُعدّ أمرًا صعبًا علينا، وهو أنّ جميع معارف الإسلام في المجالات المختلفة من العقيدة والأخلاق والقيم والأحكام قد اختُصرت في كلمة «لا إله إلّا اللّه».

والإجابة الأوضح هنا هو أنّ الإسلام يرسم جهة حياة الإنسان وتكامله، وعلى أساس الروايات فإنّ هذه هي صبغة اللّه[٢]، حيث يقول اللّه تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[٣].

فهذا الدين الذي جاء به النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ونحن نؤمن به ونعتبر العمل والالتزام به واجبًا، ونعتبر أنّه من الجدير أن يضحّي ملايين الناس بأنفسهم من أجله، هو عبارة عن وجوب تحرّك الإنسان باتّجاه اللّه في جميع أبعاد حياته المختلفة. أي في سلوكه وأفكاره وعقائده وأخلاقه وعلاقاته الفرديّة والاجتماعيّة؛ وأن تكون حركته في جميع شؤون حياته الفرديّة والاجتماعيّة باتّجاه اللّه. بناءً عليه، لو أنّنا قبلنا بهذه الحقيقة وهي أنّ الإسلام موجّهٌ للإنسان نحو الكمال المطلق والقرب الإلهيّ وهو الهادي له في جميع شؤون حياته، فسوف تتّضح هذه الحقيقة لنا وهي أنّ مضمون الإسلام ومحتواه ليس شيئًا سوى التوجّه نحو اللّه الواحد الأحد. فما جاء في الإسلام، إمّا أن يوجّه الإنسان نحو اللّه بصورة مباشرة، أو يهيّئ له مقدّمات التوجّه والقرب منه سبحانه وتعالى. فجميع الأحكام والأوامر الفرعيّة للإسلام، حتّى

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٦، الباب ٦، الرواية ٢٩، الصفحة ٢٩٧.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٣، الباب ١١، الرواية ١٥، الصفحة ٢٨٠؛ والجزء ٦٤، الباب ٤، الرواية ١، الصفحة ١٣١؛ والباب ٤، الرواية ٢، الصفحة ١٣٢.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ١٣٨.

أحكام الوجوب والاستحباب التي ترتبط بسلوكه وأعماله الحيوانيّة، هي من أجل أن تنصبغ كل سلوكيّات الإنسان. ومنها سلوكيّاته الحيوانيّة. بصبغة اللّه وتتّخذ الوجهة الإلهيّة. فلو أنّ هذا السلوك الحيوانيّ أخذ طابعًا إلهيًّا وأصبح في مسير طاعة اللّه وكسب رضاه فسوف يحوز على القيمة.

إنّ التوحيد في الإسلام هو عبارة عن مرهمٍ علاجيّ يشتمل على الاعتقاد بالتوحيد والخالقيّة والربوبيّة التكوينيّة والربوبيّة التشريعيّة للّه تعالى؛ وهو سببٌ لتحقّق سعادة الإنسان وسموّه. ومن مستلزمات تحقّق سعادة الإنسان وسموّه هو أن يقبل بجميع أجزاء التوحيد وأركانه. فإذا لم يقبل هذا الإنسان ركنًا واحدًا من أركان التوحيد، فكأنّه لم يقبل بأصل التوحيد، كما إنّه إذا لم يكن في أي مرهمٍ علاجيّ بعض عناصره وأجزائه الأساسيّة، فإنّه لن يؤدّي إلى الشّفاء بل من الممكن أن يكون أيضًا مضرًّا. وبالالتفات إلى هذه الحقيقة، فإنّ اللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾[1].

فالمؤمن هو ذاك الذي يصدّق بمجموع الدين بشكلٍ كامل، فلو آمن إنسانٌ ما، ببعض الدين ورفض البعض الآخر فهو كافرٌ على الحقيقة لأنّه لم يؤمن بكل ما أنزله اللّه، هذا بالإضافة إلى أنّه في أعماق قلبه لم يؤمن بدين اللّه، فهو في الواقع عابدٌ لهواه وليس عابدًا للّه وذلك لأنّه اعتقد بذاك القسم من الدين على أساس ميوله ورغباته، لا لأنّ ذاك القسم كان ممّا أنزله اللّه تعالى. في حين أنّ الذي يعبد اللّه هو ذاك الذي يؤمن بكل ما أنزله اللّه تعالى، ولا يتّبع رغباته وميوله.

إنّ نتيجة الاعتقاد بالخالقيّة والربوبيّة التكوينيّة والربوبيّة التشريعيّة هو الاعتقاد بأنّ اللّه هو خالق العالم، وأنّ تدبيره وإدارته بيده سبحانه، وهو الذي يحدّد القوانين والأنظمة التي تضمن طريق سعادة الإنسان، وهنا بالذات تنبثق دوافع عبادة اللّه في الإنسان، لأنّه يعلم أنّ تدبير العالم بيد اللّه، ولهذا فإنّه لا يتحرّك نحو الآخرين لأجل رفع وتأمين احتياجاته، وفي النتيجة لن يسلّم لرغباتهم وإرادتهم. أمّا إذا أنكر

---

(١) سورة **النساء**، الآيتان ١٥٠ - ١٥١.

الربوبيّة التشريعيّة ولم يقبل بحكم اللّه، فإنّه شاء أم أبى سوف ينساق للآخرين؛ وفي النتيجة سوف يسلّم لإرادتهم ورغباتهم ويذعن لإرادة غير اللّه.

فإذا اعتقد الإنسان بأنّ اللّه خالقه وبأنّ الربوبيّة التكوينيّة والربوبيّة التشريعيّة وكلّ الوجود إنّما هو من اللّه، فلن يكون أمامه طريقٌ سوى التسليم للّه تعالى. فحين يعتقد بأنّ وجوده من اللّه، فعلى أي قدرة سوف يعتمد في مقابل اللّه؟ فحين يعلم بأنّ اللّه يدبّر العالم كلّه، فلن يكون هناك أي معنى لاتّجاهه نحو الآخرين (لسدّ حاجاته) لأنّ كل ما سوى اللّه لا يملكون شيئًا ليعطوه إيّاه. بناءً عليه، فإنّ الاعتقاد بالتوحيد الذي هو شعار الإسلام، وإنّ ذكر «لا إله إلا اللّه»، الذي يعبّر عنه له ثلاثة أركان: الاعتقاد بالخالقيّة، وبالربوبيّة التكوينيّة، وبالربوبيّة التشريعيّة، التي ينبثق منها الاعتقاد بالعبوديّة وهذا هو شعار التوحيد الذي ذكره الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ تحت عنوان: حصن اللّه.

وفي النتيجة، فإنّ كلمة «لا إله إلا اللّه» ليست مجرّد لفظٍ أو شعار بل هي تحكي عن مجموعة من العقائد التوحيديّة التي تدخل إلى قلب الإنسان الموحّد فتجعله يؤمن، على أساس تلك العقائد الراسخة، بأنّ الوجود متعلّقٌ باللّه وأنّه هو المدبّر لجميع أمور العالم وبيده تأمين كل الحاجات وأنّه لا معبود سواه؛ وعلى هذا الأساس، فلا معنى لتوجّهه إلى ما سوى اللّه. فذاك الاهتمام الخاصّ بقضيّة التوحيد إنّما لأجل أنّ الاعتقاد الراسخ بالتوحيد في الجوانب الاعتقاديّة والأخلاقيّة والتشريعيّة يؤدّي لأن يدرك الإنسان بكلّ وجوده من هو اللّه، ويتوجّه إليه ولا يغفل عنه لحظةً واحدة.

الشهادة بالرسالة في الآذان وفي الصلاة

أشهد أنّ محمدًا رسول اللّه (ص)

إلى جانب الاعتقاد بالتوحيد يجب أن يكون الإنسان معتقدًا برسالة رسول اللّه، ويؤمن بالدين الذي جاء به من عند اللّه، ويسلّم لشريعته. بالطبع، إنّ الشهادة بالرسالة متوقّفةٌ على أن يكون اللّه تعالى قد أرسل نبيًّا ورسولًا إلينا من أجل أن يبلّغ دين اللّه الذي يتضمّن تلك التشريعات والقوانين الإلهيّة. وهناك بعد أن عرفنا

أنّ هذا الإنسان الذي أرسله اللّه هو رسول اللّه وخاتم النبيّين صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وقد اطّلعنا على دينه، هناك نصبح ملزمين على هذا الأساس بالعمل بكلّ ما بلّغنا به على أنّه وحي من اللّه، كما علينا القبول بكل ما بيّنه لنا، وذلك تحت عنوان أنّه النبيّ المرسل من اللّه وصاحب الشريعة، وعلينا الإذعان والتسليم لأوامره وأحكامه. فطاعة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ تُعدّ واجبةً في ظلّ طاعة اللّه، وذلك لأنّ الشهادة برسالته هي أمرٌ مقوّمٌ للإيمان بالإسلام والإيمان باللّه، ولهذا تُعدّ هذه الشهادة استمرارًا وتتمّةً للشهادة بالوحدانيّة.

التلازم بين الإيمان برسالة النبيّ (ص) والإمامة وولاية الفقيه

بالالتفات إلى أنّ رسول اللّه مرسلٌ من عند اللّه وصاحب الشريعة وقد كان للنّاس حاكمًا وهاديًا وأنّ إذنه هو إذن اللّه، تصبح طاعة كل من أذن له رسول اللّه ونصبّه واجبةً، ومن هنا تصبح طاعة الإمام المعصوم الذي عرّفه النبيّ لنا واجبة، ويكون الاعتقاد بولايته في طول الاعتقاد بالرسالة ومكمّلًا لها. وكذلك بالالتفات إلى أنّ الإمام المعصوم هو خليفة رسول اللّه، وقد حصل على الإذن منه، وأنّ طاعته في ظلّ طاعة رسول اللّه واجبة، فإنّ طاعة كل من ينصّبه هذا الإمام المعصوم بالتنصيب العام أو الخاص تصبح واجبة. ومن هنا فإنّ طاعة الوليّ الفقيه هي أمرٌ واجبٌ في ظلّ طاعة الإمام المعصوم. لهذا، فإنّ طاعة الوليّ الفقيه هي شعاعٌ من طاعة الإمام المعصوم، وطاعة الإمام المعصوم هي شعاعٌ من طاعة رسول اللّه، وطاعة رسول اللّه هي شعاع من طاعة اللّه. ولأجل ذلك فإنّ المؤمنين يذكرون في الآذان والإقامة جملة: «أشهد أنّ عليًّا وليّ اللّه»[1].

وبالالتفات إلى ما ذكرنا تتّضح أهميّة الرسالة والشهادة بها. ومن هنا أيضًا، فإنّ الشهادة بالرسالة قد جُعلت إلى جانب الشهادة بالتوحيد في الآذان والإقامة، وكذلك فإنّنا نشهد للنبيّ بالرسالة في تشهّد الصلاة. والنقطة الجديرة بالانتباه هنا

---

(١) ولا يخفى أنّ المؤمنين لا يذكرون هذه الجملة بقصد الورود بل بتعبير المرحوم آية اللّه العظمى السيد محسن الحكيم، يقولونها تحت عنوان رمز التشيّع، والفقهاء العظام قالوا إنّه لو ذكر أحدٌ هذه الجملة بقصد الأذان والإقامة فإنّه بالإضافة إلى بطلان الأذان والإقامة فإنّه يكون قد خلق بدعةً. (غياثي كرماني).

هي أنّه قد ورد في الأحكام الإسلاميّة أنّه لو حصل نقصٌ في الصلاة بسبب السهو، ونسي المصلّي شيئًا منها، فإنّه في بعض الموارد يجب عليه أن يسجد حال إتمام الصلاة سجدتي السهو. وفي سجدة السهو هذه، وحين تكون جبهة الإنسان على التراب، ويكون بين يدي عظمة اللّه، يجب عليه أن يصلّي أو يذكر: «السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة اللّه وبركاته». هذا مع أنّ السجدة هي عبادة ذاتيّة لا ينبغي أن تكون إلّا للّه. لكن لأجل جبران النقص في الصلاة يجب في مثل هذه السجدة التوجّه إلى الوجود المقدّس للرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والسلام عليه.

الإيمان المطلق برسالة خاتم الأنبياء (ص) وسائر الرّسل الإلهيّين (ع)

من الضروريّ الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أنّ الاعتقاد بالربوبيّة التشريعيّة للّه لا يعني أنّه يجوز لنا أن نتّبع أي شريعة، بل يجب التأكيد على هذا الأصل الاعتقاديّ وهو أنّ بعد بعثة النبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لا ينبغي إطاعة سواه، ولا ينبغي الإذعان إلّا لشريعته ولا يُقبل الالتزام العمليّ بالشرائع الأخرى والسلوك على أساسها. وبالطبع، نحن نعتقد بأنّ شرائع سائر الأنبياء حين صحيحةٌ ضمن ظروفها وشروطها وكانت في زمانها معتبرةً وحجّةً وينبغي احترامها وذلك لأنّ احترام سائر الأنبياء أمرٌ واجبٌ أيضًا ولا يجوز لأحد أن يهين أي نبيّ من أنبياء اللّه، كما أنّ إنكار أحد الشرائع التي أنزلها اللّه تعالى هو بمنزلة إنكار جميع الشرائع.

وقد مدح القرآن الكريم إبراهيم وموسى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وصدّق شرائعهم واعتبرها في زمانها وعصرها معتبرةً وحجّةً على النّاس، ويقول اللّه تعالى في كتابه المجيد: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾[1].

لهذا، فإنّ من لوازم الإيمان باللّه هو أن لا يفرّق المرء بين رسل اللّه، وأن يؤمن بالجميع ويصدّق بهم، ويعتبر أنّ طاعة الذي يأتي برسالة إلهيّة أمرًا واجبًا. وبالطبع، فقد كان في التاريخ أشخاصٌ لم يعتقدوا ولم يؤمنوا بكل ما أنزل اللّه، ولأجل ذلك فإنّ اللّه تعالى ذكر في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٨٥.

أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[1].

فلو أنّ شخصًا لم يؤمن بواحدٍ من الأنبياء الذين ذُكر أنّ عددهم كان حوالي ١٢٤ ألف نبيٍّ لعُدّ كافرًا ومستحقًّا لجهنّم لأنّ الإيمان مطلقٌ ولا يتجزّأ، فمن لم يؤمن بجميع الأنبياء والرسل الإلهيّين لن يكون مؤمنًا ولا يمكن القول إنّه يتمتّع بدرجات من الجنّة والإيمان بحسب نسبة اعتقاده بعدد الأنبياء. وقد ذكرنا في مبحث الاعتقاد بالتوحيد أنّ هذا الاعتقاد إنّما يتحقّق إذا آمن الإنسان بجميع مراتبه وأركانه أي بالخالقيّة وبالربوبية التكوينيّة وبالربوبيّة التشريعيّة للّه؛ وفي غير هذه الحالة، فإنّه يُعدّ كافرًا بسبب وجود جهة نقصٍ في إيمانه. فمن هنا، رغم أنّ الشيطان كان معتقدًا باللّه وبالخالقيّة وبالربوبيّة التكوينيّة وكذلك بوجود القيامة[2]، لكنّه أُقعد وطُرد عن ساحة اللّه واعتُبر من زمرة الكافرين لأنّه لم يسلّم للربوبيّة التشريعيّة للّه، ولم يلتزم بالأمر الإلهيّ الذي صدر بوجوب السجود لآدم، ولم يسلّم مطلقًا للّه؛ لا بل عُدّ من زعماء جهنّم، التي يدخلها الآخرون بسبب غوايته وإضلاله. فبالرغم من أنّه كان يعتقد بالخالقية وبالربوبيّة التكوينيّة للّه، ولكن بسبب طغيانه في مقابل اللّه أصبح أخسّ العصاة وأكثرهم طغيانًا. وكذلك، وكما ينبغي أن يمتلك الإنسان الإيمان المطلق باللّه، فيجب أن يكون إيمانه برسالات جميع النبيّين مطلقًا، فلو أنكر أحدٌ ما نبيًّا من الأنبياء الذين يبلغ تعدادهم ١٢٤٠٠٠ نبيًّا يكون مثله كمن أنكر جميع الأنبياء؛ لأنّه لو كان يؤمن بالأنبياء لا عن هوى أو رغبة ذاتية بل لأنّهم أنبياء اللّه ورسله، لكان ينبغي أن يؤمن بذلك النبيّ الذي أنكره، لأنّه نبيٌّ ورسولٌ للّه ولا ينبغي أن يفرّق بينه وبينهم.

الحيعلات: فصول الآذان الثلاثة

لقد مررنا بشكلٍ مختصر على بحث التوحيد والشهادة بالوحدانيّة والرسالة، والآن

---

(١) سورة النساء، الآيتان ١٥٠-١٥١.

(٢) حين يقول الشيطان: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ هو يعترف بخالقية اللّه، وحين يقول: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ فهو يعتقد بربوبية اللّه، وحين يقول: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فهو يقرّ بالقيامة. (غياثي كرماني)

نتوقّف عند الحديث عن الفصول الثلاثة للآذان والإقامة وهي: «حيّ على الصلاة»، «حيّ على الفلاح»، حيّ على خير العمل» ونذكر ما يتعلّق بالروابط فيما بينها. وكما يُلاحظ فإنّ هذه الجمل قد بُيّنت في قالب الشعار ولأجل الإعلان العام «حيّ على الصلاة» أي أسرعوا وتحرّكوا نحو الصلاة، و«حيّ على الفلاح» أي أسرعوا وتحرّكوا نحو الفوز والنجاح، والمقصود هو تحصيل الفلاح بواسطة الصلاة. أمّا جملة «حيّ على خير العمل» فإنّها تشير أيضًا إلى أنّ الصلاة هي خير العمل.

بعض الأسئلة المهمّة

وها نحن نقوم في نهاية هذا الفصل بطرح بعض الأسئلة التي تتعلّق بالصلاة والإجابة عنها.

السؤال الأوّل: بالالتفات إلى أنّ الآذان قد شُرّع لأجل الإعلان العام ولأجل تنبيه المصلّين للمسارعة إلى المشاركة في صلاة الجماعة، فلماذا يُستحبّ للإنسان الذي يصلّي لوحده وفي الخلوة أن يرفع الآذان والإقامة؟ وبعبارةٍ أخرى، بالالتفات إلى أنّ في «حي على الصلاة» و«حيّ على الفلاح» و«حيّ على خير العمل»، إعلانٌ عموميّ لأداء الصلاة، فالذي يصلّي لوحده إذا قال هذه الجمل من يكون يدعو إلى الصلاة؟

الجواب: الجواب هو أنّ ذكر هذه الجمل في صلاة الفُرادى هي لأجل تلقين النفس وتوجيهها لإدراك مكانة الصلاة كونها باعثة على النجاح والفلاح؛ ذلك لأنّ هذا الذي يرفع الآذان للإعلان العام فإنّه يشمل نفسه أيضًا بنداء الآذان هذا، فيحصل له التلقين والتوجّه أيضًا. ففي الآذان والإقامة ليس من الضروريّ أن يكون الإنسان مخاطبًا لشخصٍ آخر. إنّ رفع الآذان هو من جهة لأجل الإعلان العام وتنبيه الآخرين إلى الصلاة، ومن جهةٍ أخرى هو لأجل تلقين النفس وتوجيهها إلى مكانة الصّلاة وإلى اللّه الذي يريد أن يقف المصلّي بين يديه.

السؤال الثاني: في مورد «حيّ على الفلاح» التي تُعدّ من فصول الآذان والإقامة، يُطرح هذا السؤال وهو: هل أنّ الصلاة نفسها فلاحٌ أم أنّها تؤدّي إلى الفلاح؟

الجواب: الجواب هو أنّ الفلاح كان يُستعمل قبل الإسلام في أدبيّات العرب

ولكنّه بعد ظهور الإسلام وبالالتفات إلى الاستعمال الواسع له في القرآن تبدّل إلى مصطلح مفتاحيّ للمعارف الإسلاميّة، وقد قام المسلمون باتّباع القرآن الكريم باستعماله كثيرًا، في أدبيّاتهم.

وكما أشرنا فقد استُعملت مفردة «الفلاح» ومشتقّاتها في القرآن كثيرًا. على سبيل المثال، تبدأ «سورة **المؤمنون**» بالآية الشريفة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وفي سورة **البقرة** أيضًا بعد أن يعرّف اللّه تعالى المتّقين يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

ولا بأس أن نشير إلى هذه النقطة الأدبيّة وهي أنّ باب «أفعال» يكون في العادة متعدّيًا ولكنّه في بعض الموارد لا يكون كذلك بل يُستعمل في قالب الفعل اللازم. في الآيتين المذكورتين: جاءت «أفلح» و«المفلحون» لازمين، وأصبحت «أفلح» بمعنى «صار ذا فلاح»، و«المفلح» يعني يتمتّع بالفلاح.

وتُستعمل كلمة الفلاح بمعنى «الفوز» و«السعادة» و«الانتصار»، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾[٢] وفي الحقيقة، فإنّ «أفلح» هنا بمعنى «فاز» و«تغلّب»، كما أنّه في الآية الشريفة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[٣].

فمفهوم الفلاح إذًا هو ذو ارتباط قريب بمفهومي «الفوز» و«السعادة»، ومن خلال التدقيق بموارد استعماله يمكن إدراك هذا الارتباط. ولأجل التوضيح نقول إنّ كلّ إنسان يصبو بفطرته إلى السعادة ولا يمكن أن نجد إنسانًا لا يبحث عنها، وهناك إذا أراد الإنسان أن يبحث عن السعادة فينبغي أن يتجاوز تلك الموانع التي تعترض مسير وصوله إليها، من أجل أن يصل في النهاية. فإذا وصل إلى السعادة فإنّه يكون موفّقًا من جهة تمكّنه من تجاوز تلك الموانع والنجاة من تلك العوامل التي كانت تمنعه من الوصول إلى الهدف. وهنا، تُستعمل كلمة «الفلاح» بشأنه ويُقال أنّه قد «أفلح». لهذا، فإنّ كلمة «الفلاح» تُستعمل في المورد الذي يتمكّن فيه الإنسان من

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٥.
(٢) سورة **طه**، الآية ٦٤.
(٣) سورة **طه**، الآية ٦٩.

تجاوز تلك الموانع التي تقف أمام كماله ووصوله إلى الهدف، وبعبارةٍ أخرى، يكون قد نجا من تلك الموانع.[١] أمّا إذا أخذنا بعين الاعتبار وصول الشخص إلى مطلوبه وسعادته فتُستعمل كلمة فاز بشأنه، والمقصود أنّه وُفّق إلى إدراك مطلوبه.

فالصلاة عامل الفلاح. وفي الآذان والإقامة، يُدعى المصلّون إلى هذه الصّلاة وذكر «حيّ على الفلاح» ينبّه المصّلي إلى هذه القضيّة، وهي أنّه من خلال أداء الصّلاة سيصل إلى الفلاح.

السؤال الثالث: لماذا تؤدّي الصلاة إلى الفلاح؟

الجواب: الجواب هو: في هذه الحياة، إنّ الاحتياجات والتعلّقات الماديّة هي بذاتها لا تعين الإنسان على الوصول إلى السعادة فحسب، بل من الممكن أن تكون مانعًا من وصوله إليها. فالاحتياجات والتعلّقات الماديّة تظهر في الإنسان منذ الطفولة، فنجد أن الطفل منذ اللحظة الأولى لولادته يعلن عن حاجته للغذاء من خلال البكاء، ومنذ هذه اللحظة، يظهر تعلّقه بالطعام والغذاء. بالطبع، إنّ هذا التعلّق يزداد مع الأيّام حتّى يصل الإنسان إلى مرحلة يظهر فيها التعلّق بالمنصب والرئاسة والشهرة الدنيويّة.

ومن المحرّكات الأساسيّة للإنسان لتأمين حاجاته ورغباته الماديّة هو تلك اللذة التي تحصل له. فهذه اللذّة، بالإضافة إلى أنّها مؤقّتةٌ، فإنّها تحمّل الإنسان الكثير من التعب والمشقّة. فعلى سبيل المثال، يتناول الإنسان طعامه بعد الشعور بالجوع، ولكنّه يتعب ويشقى في سعيه لتأمين الغذاء، وكذلك أثناء الغذاء يجب أن يتحمّل التعب والألم. وبعد الشبع، فإنّه يشعر بالارتخاء والثقل. فلذّته تنحصر بالوقت الذي تكون أعصاب لسانه مستشعرةً بطعم الغذاء. ولكن من الملفت كم يسعى الناس لأجل رفع هذا الاحتياج الضروريّ للبدن والذي يتأمّن حياة الإنسان في كنفه، بحيث أنّه لو لم يتغذَّ لمات، وكم يتحمّلون في ظلّ ذلك من صعابٍ ومشقّات، فقط من أجل تأمين لذّةً مؤقّتةً لأنفسهم. إنّ تأمين سائر التعلّقات والاحتياجات الماديّة، يتلازم أيضًا مع الألم والسعي الكثير والتمتّع باللذات المحدودة والزائلة.

---

(١) من هذه الجهة، يطلقون على المزارع الذي يزيل الموانع من أمام نموّ البذرة بالفلاّح. (غياثي كرماني).

والآن، بالالتفات إلى أنّ هدف الإنسان النهائيّ هو القرب من اللّه تعالى، وطريق الوصول إليه هو التوجّه إليه سبحانه وطاعته، فهل أنّ استهلاك الحياة والطّاقة لأجل الوصول إلى المطالب الماديّة، والدخول في المنافسات الدنيوية النزيهة وغير النزيهة والكثير من المشاكل يؤدّي إلى الغفلة عن اللّه ويمنع من الوصول إلى القرب الإلهيّ؟ على كلّ حال، فإنّ ضرورات الحياة الماديّة التي لا مهرب منها، تكبّل قدمي الإنسان ويديه وتمنعه من التحرّك نحو الكمال والقرب الإلهيّ.

والآن، إذا كانت التعلّقات الماديّة، والاستفادات الحلال من التعلّقات الماديّة هكذا، فما بالك بالاستفادات غير المشروعة منها، أي التي تؤدّي إلى وجود القيود والأغلال على أقدام الإنسان وتمنعه من الوصول إلى المقصد. وأيضًا، بالالتفات إلى أنّ اللّه قد خلق الإنسان وجعل هدفه الوصول إلى الكمال النهائيّ، أي الجوار والقرب والإلهيّ وهو ذاك المقام الذي وصفه اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1].

فلماذا جعله يعاني من كل هذه التعلّقات والاحتياجات الماديّة لكي تصبح مانعًا من سيره نحو اللّه تعالى؟

والجواب هو أنّ اللّه تعالى أعطى للإنسان العقل وقدرة الاختيار، ويجب أن تكون حركة الإنسان وفق الاختيار الصحيح. فحتّى يصل إلى الكمال، عليه أن يتجاوز الموانع ويواجه العوامل المخالفة لسعادته وكماله. يجب أن يتصارع مع مشاكل الحياة وصعابها، ويختار، بإرادته طريق الكمال والسعادة من بين الطرق والمنعطفات التّي تعترضه، فيصل بسلوك هذا الطريق إلى الكمال الإنساني ومقام الخلافة الإلهية. وهنا، تبدأ تلك العوامل الشيطانيّة والوجود الشيطاني بالظهور والاتضّاح، فلو لم يكن الإنسان متمتعًا بقدرة الاختيار، وكان كالملائكة لا يملك سوى الطّاعة والعبودّية للّه، وكان فاقدًا لقوّتيّ الشهوة والغضب، لما تمكنّ من الوصول إلى مقام الخلافة الإلهية، التّي هي أعلى من مقام الملائكة، ووصل، في النهاية، إلى تلك الحركة التّكاملية الإنسانية.

---

(١) سورة **القمر**، الآيتان ٥٤-٥٥.

والآن، وبالتوجه الى هذه الحقيقة وهي أنّ اللّه تعالى قد خلقنا للوصول إلى الكمال النهائي وإلى القرب النهائي، وفي الوقت نفسه، فإنّ الإنسان في هذه الدنيا مبتلًى بكل هذه المشاكل والصعاب والتعلّقات المادّية، والتّي بدونها لا تستمر تلك الحياة المادّية، فما هو العامل الذي ينجيه من مستنقع التعلقّات الماديّة؟ فكيف يقدر أنّ يرفع تلك القيود والأغلال عن روحه حتّى تسلك روحه طريق الكمال والفلاح بحريّةٍ وتتخلّص من التعلّقات الماديّة؟ الجواب هو: إنّ أفضل عاملٍ يمكن أن ينجي الإنسان من فخّ هذه التعلّقات هو ذكر اللّه، وأفضل تجلٍّ لذكر اللّه يتحقق في الصلاة، بناءً عليه، إذا قيل إنّ الصلاة عامل الفلاح، فهذا يعني أنّها قادرةٌ على إخراج الإنسان من كل هذه التلوّثات والتعلقّات المادية وإنقاذه منها، وتحريره من أسر الشيطان والرغبات الحيوانية، وهدايته إلى الطريق الأساسي للحياة وهو طريق التّكامل الإنساني المعنويّ.

وفي الواقع، إنّ الإنسان مثل كائنٍ معلّقٍ في الفضاء، واقفٌ بين نوعين متضادّين من الجذبات، تريد كلّ واحدةٌ منها أن تستقطبه إليها:

فأحدها هي تلك التعلّقات المادّية التّي تجرّ الانسان دائمًا نحوها، وتجلب انتباهه دائمًا وتشغله بها، فإذا لم يتم ترويضها والسيطرة عليها فسوف يُبتلى بذلك المستنفع الذي يُعدّ الخلاص منه صعبًا جدًا.

والجاذبة الأخرى هي تلك الجاذبة الإلهية والمعنويّة التي تتحقّق في ظلّ ذكر اللّه والصلاة بخشوعٍ وحضور قلب، وهذه هي الجاذبة التّي يمكن أن تُنجي الإنسان من فخّ التعلّقات المادّية، وتخرجه من مستنقع التلوثّات والظلمات والانحطاط، فالصلاة المتلازمة مع الخشوع والخضوع بين يديّ اللّه هي العامل الأساسي لفلاح الإنسان ولتقوية توجّهه نحو اللّه، وتثبيته على هذا الطريق، كما يقول اللّه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[1].

أي لأنّ الصلاة هي أفضل عاملٍ وقالبٍ يتجلى فيه ذكر اللّه، ولأنّها باعث على التّكامل والثبات ودوام الذّكر، ولأنّها تمنع الإنسان من كلّ الرذائل والمنكرات،

(١) سورة **المؤمنون**، الآيتان ١-٢.

فإنّ اللّه تعالى يقول: ﴿...إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ...﴾[١].

وفي موضعٍ آخر يقول اللّه تعالى مخاطبًا نبيّه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[٢]

فالصلاة تخلّص الإنسان من الكدورات والحجب النفسانيّة والقيود الشيطانيّة، وتؤدّي إلى اضمحلال الجاذبيات الماديّة والحيوانية، وتجعل الإنسان مجذوبًا للجاذبيات المعنويّة والإلهيّة، ومتوجّهًا إلى ملكوت اللّه. من هذه الجهة عُرّفت الصلاة في الآذان والإقامة كعاملٍ للفلاح.

السؤال الرابع: بالالتفات إلى وجود أعمال أخرى ينبغي أن تؤدّي إلى الفلاح أيضًا، فهل أنّ الصلاة لوحدها تؤدّي إلى الفلاح؟

الجواب: مع ملاحظة ودراسة العوامل التّي تؤدّي إلى الفلاح ندرك أنّ الصلاة شرطٌ لازمٌ للوصول إليه، وبدونها لن يتمكّن أيّ عامل أو برنامج آخر من إيصال الإنسان إلى الفلاح، لهذا، فإنّ الآيات التّي نزلت في ذكر صفات المفلحين، إمّا أنّها ذكرت «الصلاة» بالصراحة[٣]، أو أنّها استعملت التعبيرات العامّة في تلك الآيات والتّي تشمل الصلاة أيضًا، نظير: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤]

فباليقين لا يمكن لأيّ إنسانٍ أن يحقّق التقوى من دون الصلاة.

وكما قلنا فإنّ الصلاة شرطٌ لازمٌ للفلاح، لكنّها ليست شرطًا كافيًا؛ من هنا فإنّها لا تكون بديلًا عن غيرها من التكاليف والوظائف المُلقاة على الإنسان. فلو أنّ شخصًا اشتغل بالصلاة ليلًا نهارًا وامتنع عن أداء الفرائض الأخرى كالصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكسب العلم فإنّه لن يصل إلى الفلاح وذلك لأنّ تلك الفرائض هي أيضًا عوامل الفلاح. ولكن نؤكّد هنا أيضًا أنّ من بين

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٥.

(٢) سورة **طه**، الآية ١٤.

(٣) كما نلاحظ في بداية سورة **البقرة** ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وفي الآية الأولى من سورة **المؤمنون** ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ فقد تمّ التصريح بأنّ الصلاة هي عنوان عامل الفلاح.

(٤) سورة **آل عمران**، الآية ٢٠٠.

مجموع العوامل التي تؤدّي إلى الفلاح فإنّ الصلاة شرطٌ لازم، بل هي أهم العوامل وأكثرها تأثيرًا في وصول الإنسان إليه.

السؤال الخامس: بالإلتفات إلى أنّه ذُكر في بعض الروايات أعمال أخرى كأفضل عملٍ مثل الشهادة في سبيل اللّه، وفي رواية مذكورة عن رسول اللّه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يقول: «فَوْقَ كُلِ ذِي بِرٍّ بَرٌّ حَتَّى يُقْتَلَ الرَّجُلُ فِي سَبِيلِ اللّه فَإِذَا قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللّه فَلَيْسَ فَوْقَهُ بِر»[١]. فكيف يُقال في الآذان والإقامة «حي على الصلاة» التي هي خير عمل ولماذا عُرِّفت الصّلاة على أنّها خير الأعمال؟

الجواب: يجب بدايةً الالتفات إلى أنّه يمكن تقسيم الخصائص والمميّزات الموجودة في الصلاة والتي تؤدّي إلى تفوّقها على سائر الأعمال إلى ثلاثة أقسام:

أوّلًا . إنّ الصلاة هي الفريضة الوحيدة الواجبة التي هي واجبة على الإنسان في كل يوم وفي جميع الظروف، وهي الفريضة الوحيدة التي يكون أداؤها ميسّرًا في كل الأحوال. وفي المقابل، فإنّ الجهاد لا يكون واجبًا دائمًا كما أنّ إمكانيّة المشاركة في الجهاد ليست متوفّرة للإنسان دائمًا، إما لأنّه لا يوجد حرب قائمة، أو لعدم توفّر الظروف اللازمة والكافية للمشاركة في الجهاد. فمن الممكن للإنسان أن يقوم بجميع الأعمال الواجبة طيلة عمره لكن لا تقع أيُّ حربٍ لكي يشارك فيها. هذا في حين أنّه يجب عليه أن يصلّي في الأوقات الخمسة، ويمكنه أن يصلي الصلوات المستحبة خارج هذه الأوقات أيضًا، ويستطيع أن يصلّي الصلوات المستحبة أثناء العمل والحركة وأثناء ركوبه للقارب أو سفره بالسيّارة أو القطار أو الطائرة، حتى إنّه يستطيع أن يقضي صلوات النوافل، وفي هذه الحالة، لا يلزم رعاية استقبال القبلة وبعض الشروط الأخرى التي يلزم رعايتها في الصلاة الواجبة. كما أنّ الصيام واجبٌ في شهر رمضان فقط، حتى أنّ الإنسان إذا مرض في هذا الشهر المبارك أو كان لديه عذرٌ آخر يسقط عنه الصّيام وعليه أن يقضي ما فاته بعد هذا الشهر المبارك وبعد ارتفاع ذلك العذر الشرعي، لكنّ أداء الصلاة واجبٌ في كل الظروف حتى وإن كان الإنسان مريضًا لا يستطيع أن يقف أو يجلس، وحتى الشخص الذي يكون في حال الغرق، عليه بأي شكلٍ من الأشكال أن يؤدّي الصلاة.

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٣٤٨.

ثانيًا . الميزة الأخرى للصلاة على سائر العبادات هي أنّ الصلاة ينبغي أن تُؤدّى بقصد العبادة والتقرّب من اللّه فقط، حيث إن حقيقتها وروحها وماهيتها هي الارتباط باللّه ويتبلور هذا التوجّه إلى اللّه والعبودية له في أذكارها وأعمالها. وتوضيح ذلك هو أنّ العبادة هي بمعنى الارتباط باللّه، والعمل إنّما يُعدّ عبادة إذا تم القيام به بقصد القربى والعبادة، وكان متضمّنًا للارتباط باللّه. فلو أدّى الإنسان عملًا جيدًا وحسنًا من دون قصد القربى والعبادة فلن يكون عمله هذا عبادة ولن يؤتى ثوابه لأنّه قد أدّاه بدافع طلب الشّهرة أو أي دافع آخر لا بدافع العبادة والقربى. أمّا إذا كان هذا العمل لا يُعدّ عبادة في الظاهر، ويمكن القيام به بدافعٍ غير عباديّ، فإنّه يترتّب عليه فوائد حتى وإن لم يؤدّه الشخص بقصد القربى والعبادة. فعلى سبيل المثال، يمكن للإنسان أن يجاهد بقصد القربى وبعنوان العبادة، وكذلك يمكن له أن يجاهد بدافعٍ غير إلهيّ فتكون فائدته الحصول على غنائم الحرب أو حفظ الوطن أو الدفاع مقابل هجوم العدوّ أو تحقيق الأمن وغير ذلك من الامتيازات.

وكذلك الأمر بالنسبة الصوم، رغم أنّه عبادة، فإذا قام به الإنسان من دون قصد القربى ومن دون دافع العبادة كأن يطلب به صحّة البدن فسوف تترتّب عليه فوائد، لأنّه قد أدّاه في قالب عملٍ لا يخلو من الفائدة.

وكذا، لو أنفق الإنسان من دون قصد القربى والنيّة الإلهية، فإنّ هذا الإنفاق، وإن لم يكن عبادة، ولكن من جهة أنّه عملٌ إيجابيّ بذاته سوف تترتّب عليه فوائد عدّة مثل طمأنينة البال أو حفظ المجتمع من مخاطر السرقة و... فمثل هذه الأعمال التي يمكن أداؤها من دون قصد القربى تُعدّ «عبادات عرضيّة» لأنّه يمكن القيام بها بدافع غير إلهيّ وسوف تحوز في هذه الصورة على حقيقة وهويّة ذات فوائد عديدة. أمّا الصلاة، فهي بذاتها عبادة ولا يمكن أن تتحقّق من دون قصد القربى ومن دون الدافع الإلهيّ، وبعبارةٍ أخرى، إنّ الصلاة لا تُشبه الصوم، الذي إذا تمّ القيام به من دون قصد القربى يبقى ذات فائدة؛ فالصلاة إذا أُقيمت من دون قصد القربى فإنّها ستكون لغوًا وعبثًا ولن يترتب عليها أيّ فائدة. فجميع الأعمال والحركات والأذكار الموجودة في الصلاة هي بذاتها تُؤدّى بعنوان العبادة وإظهار العبودية بين يدي اللّه، وهي بذاتها مظهر الارتباط باللّه. من هنا، كانت الصلاة أفضل من سائر العبادات.

ثالثًا . إنّ الامتياز الآخر الذي للصلاة على سائر العبادات، هو أنّ في الصلاة إمكانيّة توجّه الإنسان بكلّ وجوده إلى العبادة وذكر اللّه من دون أن يتوجّه إلى أي شيء آخر سواه. بالطبع، إنّ هذه المرتبة العالية من حضور القلب والتركيز والتوجّه إلى المعبود، لا تتحقّق في الأشخاص العاديّين ولكنّ الصلاة تحظى بمثل هذه الشأنية والقابلية بحيث تمكّن الإنسان من جعل كل توجّهه منصرفًا إلى اللّه، كما هو حال أولياء اللّه وخاصّته في صلاتهم، حيث لا يتوجّهون إلى غير اللّه. ولكنّ مثل هذه الإمكانيّة غير موجودة في سائر العبادات ولا يمكن لتلك العبادات أن تحقّق مثل هذا التوجّه الكامل لذكر اللّه. فتلك العبادات، بالإضافة إلى حضور قلب الإنسان وتوجّهه إلى اللّه، يجب أن يوجّه قسمًا من ذهنه ونفسه إلى الجوانب الأخرى. فالجهاد مقابل أعداء اللّه هو مثلًا أحد العبادات لكنّ الإنسان لا يستطيع أثناء الجهاد أن يركز كلّ توجّهه نحو اللّه دون سواه. فهو بالإضافة إلى ضرورة قصد التقرّب والعبادة يجب أن يتوجّه إلى العدوّ وإلى الأوضاع المحيطة به، وأن يسعى بكلّ نباهةٍ وحذر إلى دفع العدوّ ومواجهته، ولهذا يكون مضطرًّا لتوجيه قسمٍ من قواه نحو غير اللّه؛ فعدم التركيز على نقطةٍ خاصّة والتوجّه إلى جهات متعدّدة هو أمرٌ ضروريٌّ لا يمكن تفاديه؛ ولكن لا يوجد مثل هذه الضرورة في الصلاة. ففي الصلاة، يمكن للمؤمن السالك أن يركّز كلّ توجّهه ووجوده نحو العبوديّة. ومن هذه الجهة أيضًا تكون الصلاة أفضل من سائر العبادات.

وبالالتفات إلى المميّزات التي عدّدناها، تكون الصلاة أفضل من سائر العبادات والأعمال. ولا شكّ بأنّ لبعض العبادات الأخرى مميزّات خاصّة بها. فمن هذه الجهة لا يمكن غضّ النظر عنها، كما لا يمكن للصّلاة أن تكون بديلًا عنها. بناءً عليه، لا ينبغي للإنسان أن يتوهّم أنّه بأداء الصلاة، وقضاء وقته في الصلوات المستحبّة، تسقط عنه الواجبات الأخرى أو لا يعود بحاجة للقيام بها، أو أن يؤدّي هذا التأكيد الكبير على الصلاة إلى صرفه عن غيرها من الوظائف المهمّة؛ وهو ما حدث في صدر الإسلام للخليفة الثاني، حين كان بصدد توسيع رقعة الأراضي الإسلاميّة وأراد أن يحفّز الناس ويحرّضهم على الحرب والقتال. فقد ظنّ أنّه حين تُعرّف الصلاة كل يوم عدّة مرّات في الآذان والإقامة على أنّها «خير العمل»، فإنّ الناس لن يعودوا يولون أهميّة لمحاربة الكفّار وأنّ التوجّه إلى الصلاة على أنّها خير الأعمال، سيصرفهم عن الحرب. ولهذا أمر بحذف «حيّ على خير العمل» من الآذان والإقامة، غافلًا عن أنّ الصلاة لا يمكن

أن تكون بديلًا عن غيرها من الفرائض والعبادات بأيّ وجه. فستبقى كل العبادات في محلّها فريضةً يجب القيام بها. ولن تكون الصلاة بديلًا عن الصيام والجهاد ضدّ أعداء اللّه، ولن يكون الصوم والجهاد بديلين عن الصلاة.

حكمة قراءة القرآن في الصلاة

بعد تكبيرة الإحرام يجب على المصلّي أن يقرأ سورة **الحمد** وأي سورة أخرى من القرآن. بالطبع، يعتقد الشيعة أنّه لا يجوز للمصلّي أن يقرأ السور التي تجب فيها السجدة في الصلاة الواجبة. وهنا يُطرح سؤالين:

الأوّل: لماذا وجب على المسلمين أن يقرأوا القرآن في الصلاة؟

الثاني: لماذا تبدأ قراءة القرآن في الصلاة بسورة الفاتحة؟

صادف أنّ بعض الناس قد طرحوا هذين السؤالين على الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد أجاب عن السؤال الأوّل قائلًا: «إنّ حكمة قراءة القرآن في الصلاة هي أن لا يدع الناس القرآن جانبًا ويضيعوه، بل يحفظ الناس ارتباطهم بالقرآن، فيأخذون منه العبر والدروس كي لا يبقوا غافلين»[1].

لهذا، يجب على المسلمين أن يقرأوا كلّ يوم جزءًا من القرآن، وأن يعلموا أنّ اللّه قد أوجب على المصلّين أن يقرأوا القرآن كلّ يومٍ في صلاتهم عشر مرّات نظرًا لأهميّة الارتباط بالقرآن وحفظ رسالته وندائه. ولو لم يكن الأمر كذلك ولم تكن قراءة القرآن واجبة في الصلاة، لكان الكثير من المسلمين قد قطعوا رابطتهم بالقرآن الذي هو أعظم هديّة ونعمة إلهيّة للبشريّة، وهو الطريق الوحيد للوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة. فالمسلمون مع اختلاف مراتبهم يجب أن يحافظوا على هذه الرابطة الثابتة مع القرآن. من الطبيعي حين تستقر هذه الرابطة القرآنية فإنّهم سيأنسون شيئًا فشيئًا بلغة القرآن وقراءته وتتوفّر بذلك أرضيّة إدراك مفاهيم القرآن فيهم،

---

(١) الشيخ الصدوق، **من لا يحضره الفقيه** (منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميّة في قمّ المقدّسة، الطبعة٢، ١٤٠٤هـ)، الجزء ١، الصفحة ٣١٠. الرواية: أُمِرَ النَّاسُ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ لِئَلَّا يَكُونَ الْقُرْآنُ مَهْجُورًا مُضَيَّعًا وَلْيَكُنْ مَحْفُوظًا مَدْرُوسًا فَلَا يَضْمَحِلَّ وَلَا يُجْهَل.

وهكذا يُمهّد الطريق للعمل بالقرآن أيضًا. أمّا إذا لم تكن قراءة القرآن في الصلاة واجبةً، وبقيت هذه القراءة مستحبّةً فإنّ الكثير من الناس لن يجدوا ذاك الدافع لقراءة القرآن. وإذا أُغلق هذا الطريق، فإنّ حكمة نزول القرآن وهي هداية البشريّة لن تتحقّق عمليًّا.

أمّا في الإجابة عن السؤال الثاني وهو: لماذا أوجب اللّه تعالى أن يقرأ الناس في صلاتهم كلّ يوم سورة **الفاتحة** عشر مرّات، فأجاب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لأنّه لا يوجد سورة من سور القرآن جمعت، ما جمعته سورة الفاتحة من الكلام الحكيم والحسن»[1].

وبالإضافة إلى ذلك، يمكن أن نفهم أنّ الارتباط الضروريّ والواجب بالقرآن إنّما ينبع من رحمة اللّه ولطفه بحقّنا لأجل أن نتمكّن بهذه الوسيلة من الاستفادة من معارفه وحقائقه اللامتناهية، على طريق السير نحو السعادة وبلوغ الكمال. فلو أنّ اللّه ألزمنا بالدعاء فقط في الصلاة لكنّا محرومون من بركات القرآن الكريم. ولكن بما أنّنا مسلمون فقد عقدنا العهد مع اللّه تعالى بأن نتحرّك على طريق كسب رضاه وتحقيق إرادته، واخترنا طريقه للوصول إلى السعادة. اللّه أيضًا قد جعل الطريق الوحيد للارتباط به عبر القرآن لأجل أن نصل إلى مقام قربه في ظلّ الاستفادة والعمل بهذا الكتاب السماويّ.

---

(١) المصدر نفسه. الرواية: «وَإِنَّمَا بُدِئَ بِالْحَمْدِ دُونَ سَائِرِ السُّوَرِ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْكَلَامِ جُمِعَ فِيهِ مِنْ جَوَامِعِ الْخَيْرِ وَالْحِكْمَةِ مَا جُمِعَ فِي سُورَةِ الْحَمْدِ».

الفصل الخامس

الصلاة المقبولة وآثارها

يذكر الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في بيان حديثٍ قدسيّ بعض شرائط وآثار الصلاة المقبولة، فيقول:

يَا ابْنَ جُنْدَب قال اللّه جلّ وعزّ في بَعضِ ما أَوْحى: إِنَّما أَقْبَلُ الصَّلاةَ مِمَّنْ يَتواضَعُ لِعَظَمَتي ويَكُفُّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَواتِ مِنْ أَجْلي ويَقْطَعُ نَهارَهُ بِذِكْري ولا يَتَعَظَّمُ عَلى خَلْقي ويُطْعِمُ الْجائِعَ ويَكْسوُ الْعارِيَ وَيَرْحَمُ المُصابَ ويُؤْوِي الْغَريبَ؛ فَذلِكَ يُشْرِقُ نورُهُ مِثْلَ الشَّمسِ. أَجْعَلُ لَهُ في الظُّلْمَةِ نورًا، وفي الجَهالةِ حِلْمًا، أَكْلاَؤُهُ بِعِزَّتي وَأَسْتَحْفِظُهُ ملائكتي، يَدْعُوني فَأُلَبّيهِ، ويَسْأَلُني فَأُعْطيهِ، فَمَثَلُ ذلك الْعَبدِ عندي كَمَثَلِ جَنّاتِ الفِردَوسِ لا يُسْبَقُ أثمارُها ولا تَتَغَيَّر عن حالِها»[1].

شرائط قبول الصلاة

بالالتفات إلى هذا الحديث الشريف يمكن أن نبيّن شرائط وآثار الصلاة المقبولة على النحو التالي:

١- التواضع أمام عظمة الربّ المتعال

ينبغي للمصلّي أن يستحضر عظمة اللّه أثناء صلاته، فكلّما وُفّق الإنسان لإدراك عظمة اللّه سيزداد تواضعه بين يدي الحقّ المتعال، وسيدرك أكثر فأكثر ضآلته وصغره.

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٣٣٨٨.

٢- اجتناب الهوس لأجل رضا الله

الشرط الثاني هو أن يجتنب المصلّي كل أشكال الهوى والهوس الباطل لأجل اللّه، ويقول: اللهمّ! إنّي أكفّ عن هذا الأمر لأجلك، ولا أتحرّك نحو الشهوات والمعاصي. مثلما أنّ الإنسان أحيانًا يغضّ النظر عن بعض رغباته من أجل أصدقائه يمكنه أن يفعل ذلك أيضًا في سبيل اللّه ويجتنب الشهوات غير المحلّلة ويغضّ النظر عنها. فبين أداء الصلاة بصورةٍ جيّدة واتّباع الشهوات غير المحلّلة نسبة معكوسة، بهذا المعنى أنّ الإنسان كلّما صلّى بصورة أفضل سوف يبتعد بالمقدار نفسه عن الشهوات المحلّلة. وبالعكس، كلّما أسرع نحو الشهوات ابتعد عن الصلاة.[١] وما أجمل ما بيّنه القرآن الكريم في هذا المجال، بشأن بعض الأقوام السابقين، وبعد ذكر عددٍ من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يقول: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٢].

ثمّ يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[٣].

فإذا أراد الإنسان أن يعلم لماذا لا يستطيع أن يأنس مع اللّه في الصلاة كما هو مطلوبٌ ولازم، فيجب أن ينظر إلى مدى تعلّقه بالشهوات غير المحلّلة والأفكار الباطلة.

٣- ذكر اللّه على الدوام

الشرط الثالث هو أن يشرع المصلّي يومه بذكر اللّه، فهناك أشخاصٌ يذكرون اللّه على الدوام وفي كلّ الأحوال ولا يغفلون عنه أبدًا: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٤].

---

(١) وبعبارةٍ أخرى، يوجد حرب بين الصلاة والفحشاء والمنكر، فإذا حصل وقف إطلاق النار في جبهةٍ ما فسيؤدّي ذلك إلى ازدياد النيران في الجبهة المقابلة.

(٢) سورة **مريم**، الآية ٥٨.

(٣) سورة **مريم**، الآية ٥٩.

(٤) سورة **النور**، الآية ٣٧.

فللّه رجالٌ لا يمكن لأيٍّ من الأعمال الماديّة أن تحول بينهم وبين ذكره. وبصدد الإشارة إلى قدرة الإنسان على ذكر اللّه أثناء اشتغاله بالأمور الماديّة يقول المرحوم العلّامة الطبطبائي رحمة اللّه عليه: ومثلما أنّه لا يمكن لفقدان عزيزٍ أو محبّة حبيبٍ أن يمنعا من القيام بالأعمال والأنشطة اليوميّة، ويكون الإنسان بالرغم من اشتغاله بهذه الأمور والشؤون الدنيويّة متوجّهًا إلى ذكر العزيز أو الحبيب، فإنّ رجال اللّه أيضًا يكونون على هذا النحو في دوام ذكرهم للّه في كلّ الحالات.

٤- التواضع لعباد اللّه

ومثلما أنّ الإنسان ينبغي أن يكون متواضعًا خاضعًا للّه تعالى، يجب أن يكون بعيدًا عن التكبّر على عباد اللّه[١]. بناءً عليه، فإنّ اجتناب التفاخر على خلق اللّه هو أحد الشروط الأخرى لقبول الصلاة.

٥- إطعام الجائعين

ومن الشروط الأخرى أنّ الإنسان إذا رأى جائعًا لا يمكنه أن يسدّ جوعه يطعمه، فهذا هو أحد مصاديق الزكاة. ففي المصطلح القرآني، لا تنحصر الزّكاة بالزّكاة الواجبة التي تتعلّق ببعض الأموال الخاصّة، بل إنّ مفهوم الزكاة في القرآن هو الإنفاق في سبيل اللّه. وفي الإسلام يوجد زكاةٌ واجبة وزكاةٌ مستحبّة، أمّا الزكاة الواجبة فهي التي تتعلّق ببعض الأموال، لكنّ الزكاة المستحبّة تشمل الصدقات والنفقات وغيرها من الموارد المشابهة. ولا نجد الزكاة والصلاة منفصلتين عن بعضهما أبدًا. ففي القرآن، يقول اللّه تعالى نقلًا عن النبيّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[٢].

بناءً عليه، فإنّ الإنفاق على المحتاجين هو أحد الشروط الأخرى لقبول الصلاة.

---

(١) من الطبيعيّ أنّ التواضع لعباد اللّه ينبع من التواضع بين يدي اللّه؛ وذلك لأنّ هؤلاء العباد هم مظاهر أثار قدرة اللّه وحكمته، ولذلك يكون في الظاهر متواضعًا للخلق، وهو في الواقع متواضعٌ للخالق. (غيائي كرماني).

(٢) سورة **مريم**، الآية ٣١.

٦- كسوة العراة

الشرط الآخر لقبول الصلاة، هو إذا رأى الإنسان شخصًا عاريًا لا يستطيع كسوة نفسه أن يقوم بكسوته. بالطبع، لا يعني هذا الكلام، أن يكون هذا الفرد عاريًا تمامًا لا يملك حتّى ستر عورته لكي ينطبق عليه هذا الكلام، بل المقصود هو أنّ الإنسان إذا كان محتاجًا إلى اللباس نقوم نحن بتأمين لباسه.

٧- مواساة المصابين

ومن الشرائط الأخرى لقبول الصلاة هو أن يكون الإنسان مواسيًا ومترّحمًا على الذين تنزل بهم المصائب.

٨- إيواء الغرباء

ومن الشروط الأخرى لقبول الصلاة هو أنّنا إذا وجدنا من لا مأوى له أن نعدّ له مسكنًا بقدر استطاعتنا.

آثار الصلاة المقبولة

١- نورانيّة الوجه

كل من يراعي شروط قبول الصلاة، سيضيء وجهه في عالم المعنى والملكوت، كالشمس بالنسبة لعالم الدنيا. وأولئك الذين يمتلكون تلك العين الباطنيّة يمكنهم أن يشاهدوا هذا السطوع في هذه الدنيا أيضًا. فمن الممكن أن لا يرى أكثر الناس مثل هذا السطوع، ولكن يوجد من تفتّحت عينه الباطنة وبمجرّد أن ينظر إلى صورة الناس سيعلم أنّ هذا من أهل المعاصي، وأنّ ذاك من أهل العبادة. فنورانيّة القلب والروح هي من الآثار التكوينيّة للعبادة.

٢- إزالة ظلمة الحياة

يضيء اللّه تعالى ظلمات حياة كلّ عبدٍ يقبل صلاته، وقد ذُكر ذلك في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ

كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فالذين يخافون اللّه ويتّقونه حين يُبتلون بظلمات عالم الدنيا فإنّ اللّه سوف يمنحهم النور، حتى النور الحسّيّ. لقد كان هناك أفرادٌ فقدوا البصر ولكنّهم كانوا يستطيعون أن يقرأوا القرآن. وأحد هذه الموارد التي سمعتها من أشخاصٍ موثوقين هي أنّ أحد خدّام مدرسة مروي في طهران كان قد شاهد ذات يومين شعاعين من النور في إحدى حجرات المدرسة، وحين اقترب شاهد شخصًا أعمى مشغولًا بقراءة القرآن وكان ينبع من عينيه شعاعين من النور على القرآن.

٣- الحلم مقابل الجهّال

ما دام الإنسان في الدنيا فإنّه شاء أم أبى سيواجه أشخاصًا يتعاملون معه بجهالةٍ وهم يريدون أن يستنفذوا صبره وتحمّله، ففي مثل هذه الظروف يصعب جدًّا أن يضبط الإنسان نفسه، لكنّ اللّه تعالى إذا قبل صلاة عبدٍ منحه الحلم والصبر ليتمكّن بهما من ضبط نفسه مقابل جهالات الناس.

٤- الحفظ من قبل ملائكة اللّه

يحفظ اللّه تعالى عبده بواسطة ملائكته ما دامت الحياة بالنسبة لهذا الشخص لمصلحته.

٥- إجابة الطلبات

ويجيب دعاءه ويقضي حاجته.

٦- الفرح والسرور

ومثل هذا العبد يشبه ورود وثمار الجنّة التي لا يمكن أن تذبل أو تنقطع فهو دائم الحياة والطراوة. والتفسير العقليّ لمثل هذا الأمر هو أنّ العبد الذي أصبح متّحدًا

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٨.

مع التعاليم الدينيّة، التي لا يطرأ عليها أيّ تغيّر، تنتقل تلك الأحوال إليه وتصبح بصورة صفةٍ ثابتةٍ في نفسه وروحه.

سؤال في النهاية

وهنا يُطرح سؤالٌ هو أنّه قد جاء في رواياتنا: «الصَّلاةُ معراج المؤمن»[١].

ويقول اللّه تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٢].

فلماذا رغم أنّنا نصلّي، لا نشاهد آثارها في وجودنا؟ ولماذا لا نشعر مرّة واحدة بأنّ صلاتنا أصبحت معراجًا لنا، وأننا نعرج بها؟ لماذا ما زلنا نرتكب تلك الأعمال القبيحة؟ ولماذا لا نلحظ عشرات الآثار التي ذُكرت في الآيات والروايات بشأن الصلاة؟

والجواب هو أنّنا نحن حقيقةً لا نصلّي. وعوضًا عن ذلك فإنّ ما نقوم به هو صورة ظاهريّة شبيهة بالصلاة، فقط نؤدّي الصلاة. فهل أنّ الذي بمجرّد أن ينهي صلاته يلتفت إلى أنّه كان يصلّي، هل يكون قد صلّى حقًّا؟ الكثير من المسائل التي لا نستطيع التفكير بها في فرصٍ أخرى، فإنّنا ننتظر وقت الصلاة، لاستعراضها والتفكير فيها وتحليلها. فعلى سبيل المثال، إذا أردنا أن نعطي درسًا بعد صلاتي المغرب والعشاء، ولأنّنا لم نحصل على وقتٍ مناسبٍ للمطالعة والتأمّل، فإنّنا نغتنم صلاتي المغرب والعشاء، ونبدأ بتحضير الدرس في ذهننا. والكثير من الأشخاص الذين يعملون في التجارة والتكسّب يفكّرون أثناء الصلاة بالديون والشيكات والمعاملات، فهل يمكن أن نطلق على أمثال هؤلاء أنّهم يصلّون؟!

إنّ الصلوات التي نصلّيها لا تؤدّي إلى تكاملنا بل يجب أن نتوب منها. وبالإضافة إلى معاصينا وذنوبنا يجب أن نتوب ونستغفر اللّه على مثل هذه العبادات والصلوات. فلو قام شخصٌ وأراد أن يمدح إنسانًا أمام الآخرين، واستخدم عبارات لا يفهمها هو نفسه، فهل يُعدّ ذلك مديحًا لذلك الشخص أم إهانة

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٩، الباب ٤، الرواية ٢، الصفحة ٣٠٣.

(٢) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٥.

واستهزاء به. ولو أنّ شخصًا أراد أن يظهر مودّته لكم فاستخدم عبارات وكلمات مثل «أحبّك» و«أودّك» ولكن أنتم تعلمون ما في قلبه وتدركون أنّه ينطق بهذا الكلام وقلبه في مكانٍ آخر، وهو لا يتوجّه إلى أي معنًى من المعاني الموجودة في هذه الكلمات، فكيف ستتعاملون معه عندها؟ ولو أنّ شخصًا كان يتحدّث معكم ولكن وجهه كان منصرفًا إلى مكانٍ آخر، وهو يتطلّع يمينًا وشمالًا وفوق وتحت، ألا تعتبرون هذا من أكبر الإهانات ومن قلّة الاحترام؟! فحقًّا نقول: هل أنّ عباداتنا وصلواتنا هي إهانة أم عبادة؟!

وقد نُقل في روايةٍ عن النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قوله: «أَما يَخافُ الَّذي يُحَوِّلُ وَجْهَهُ فِي الصَّلوةِ أَنْ يُحَوِّلَ اللّه وَجْهَهُ وَجْهَ حِمار؟»[1].

حين يقول الإنسان أثناء الصلاة «اللّه أكبر» ويشهد أنّ اللّه أكبر من أيّ شيءٍ، ويكون بذهنه وقلبه متعلّقًا بأحدٍ أو شيءٍ آخر، فهذا يعني أنّ ذاك الشخص أو الشيء أهم وأكبر من اللّه عنده. وحينها هل ستكون هذه الجملة. نعوذ باللّه. أمرًا غير الاستهزاء والسخرية من اللّه؟! فلو قام شخصٌ بمدحنا وتمجيدنا، في حين أنّنا على يقين بأنّه لا يعتقد بأي كلمة ممّا يقول، فهل نحمل فعله هذا على شيءٍ سوى السخرية والاستهزاء؟ ذاك الذي يقول اللّه أكبر بلسانه، وفي الوقت نفسه يرى اللّه قلبه ويعلم أنّه ليس فيه مثل هذا الاعتقاد، ألا يستحقّ عندها أن يمسخ اللّه وجهه إلى صورة حمار؟! حين نتحدّث مع شخصٍ عاديّ فإنّنا لا نحوّل وجهنا عنه، فهل أنّ اللّه تعالى. نعوذ باللّه. أصبح أقل قيمة من إنسانٍ عاديّ بحيث أنّنا حين نكون في الصلاة وفي حال التكلّم معه نحوّل وجه قلوبنا إلى هذا النحو وذاك النحو؟! حقًّا، يجب علينا أن نتضرّع إلى اللّه ونسأله أن يغفر لنا بعدد السنوات التي صلّيناها. أجل، أن يغفر صلواتنا لا ذنوبنا. عباداتنا التي لم تكن عبادة بل كانت ممتزجة بالإهانة والاستهزاء.

يقول اللّه تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[2].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨١، الباب ١٥، الرواية ٣، الصفحة ٢١١.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٤٥.

فما هي قيمة كلام شخصٍ سكران؟! فذاك الذي يكون في حال السكر، لا يعمل عقله وإدراكه جيّدًا، ولا يلتفت إلى كلامه وإلى ما يتلفّظ به؛ هذا في حين أنّه يمكن أن يقول أي شيء. من هنا، فإنّه إذا قام بالثناء على شخصٍ وهو على هذه الحالة أو مدحه فلا قيمة لما يقول ولا يعتني أحدٌ بقوله. ومن هنا فإنّ اللّه تعالى يقول: لا تقوموا إلى الصلاة ولا تقتربوا وتتحدّثوا مع اللّه في حال السكر، لأنّ حديثك لن يكون له أي قيمة أو اعتبار، وإن كان ظاهر هذه الآية مرتبطًا بالسكر والغفلة الناشئة عن شرب الخمر، ولكن من خلال الالتفات إلى العلّة التي ذُكرت في ذيل الآية، ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾، فإنّ هذا الخطاب هو في الواقع لكلّ الذين يمكن أن يقربوا الصلاة في حال الغفلة ويريدون أن يتحدّثوا مع اللّه. ولأنّ الإنسان السكران لا يدرك ما يقول لا ينبغي أن يقرب الصلاة. لهذا، فإنّ كل الذين يكونون غافلين عن اللّه في حال الصلاة، وتكون حواسهم وانتباههم في مكانٍ آخر، سيشملهم هذا التعليل. وذلك لأنّهم لا يدركون ما يقولون.

بناءً عليه، إنّ السبب الأساسيّ الذي يقف وراء عدم استفادتنا من صلاتنا بصورة صحيحة، وعدم شعورنا بالتكامل فيها، هو أنّنا في الواقع لا نصلّي صلاةً حقيقيّة، وكلّ أملنا هو أن يسقط التكليف عنّا. وغاية ما يمكن أن يكون من أثرٍ لصلاتنا هو أن لا يُقال لنا في القبر والقيامة حين المساءلة والمحاسبة أنّه لماذا لم تصلّوا؟ ولكن لا شكّ بأنّنا لن ننال من صلاتنا أي فائدة تكامليّة ومعنويّة. وللأسف، فإنّ الكثير منّا لا يولون صلاتهم الأهميّة والتقدير اللازمين. وحين نصبح جدًا مقدّسين، ونريد أن نكون جيّدين ومؤمنين فإنّنا نسعى لتحسين قراءتها وتجويدها ونصلّيها بصوتٍ ولحنٍ جميل، ونظنّ أنّ غاية ما ينبغي أن نكون منتبهين إليه في صلاتنا هو أن نؤدّي مخارج حروفها بصورةٍ صحيحة، ونحن غافلين عن أنّ هذا النوع من المسائل ليس سوى ظاهر الصلاة وقالبها. أمّا حقيقة الصلاة وروحها هما شيءٌ آخر، فهذه الأمور ليس لها أكثر من الجهة الاستعراضيّة، أمّا ما يقرّب الإنسان في الحقيقة هو أن يكون بقلبه وروحه مرتبطًا بذات اللّه تعالى. وفي الواقع، إنّ هذه الظواهر يجب أن تكون متجلّية في ذلك التوجّه والارتباط القلبيّ. فحقيقة الصلاة وروحها هي تلك التوجّهات القلبيّة التي من دونها تكون الصلاة جثّةً هامدة بلا روح. فهل يؤمل من مثل هذا القالب الميّت أيّ تأثيرٍ، أو حركة؟!

إنّ هذه الصلاة التي تُعدّ جوهرةً نفيسةً لا بديل عنها قد أصبحت بمتناول

أيدينا، وللأسف فإنّنا نمرّ عليها ونحن عنها معرضون ولا نعطيها الأهميّة الكافية. فالكثير من الناس، حين يسعون لسلوك طريق التكامل والسير والسلوك، يقبلون بشغفٍ شديد على ذاك الذي يقول لهم ذلك السرّ المكتوم، أو الذي يقول لهم لا تقولوا ذلك السرّ، أو يعطيهم ذلك الذّكر، أو يعلّمهم إيّاه. فلو كان هناك شيء أهم من الصلاة على هذا الطريق، فهل كان اللّه تعالى ليضنّ به علينا ويبخل بإعطائه لعباده؟ إنّ اللّه تعالى الذي أرسل القرآن رحمةً للعالمين، وأرسل معه أعزّ عباده إليه لهداية البشريّة فهل أخفى عن البشر سرّ هدايتهم وتكاملهم وسعادتهم، حتى يأتي إنسانٌ آخر غير الأنبياء وأهل البيت ليعطيهم إيّاه بصورة مكتومة أو عبر رموزٍ خاصّة ولأشخاص معدودين؟! فلو كان هناك شيء أكثر أهميّة وتأثيرًا من الصلاة على طريق التكامل الإنسانيّ لكان اللّه حتمًا ليؤكّد عليه في القرآن أكثر. فلو كان هناك عمل أهم من الصلاة لكان الأنبياء والأولياء الإلهيّون يولونه أهميّة أكثر من غيره. فلماذا اختار أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الصلاة من بين جميع الأعمال والعبادات وكان يؤدّي في كلّ يومٍ وليلة ألف ركعة؟ هذه الصلاة التي لا تكون بظاهرها سوى تكرار لبعض الألفاظ والحركات. ففي حياة عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان هذا التكرار في كلّ يوم يبلغ ألف مرّة، ونحن نسأل عن هذا المفهوم أو الرسالة التي كان أمير المؤمنين يريد أن يوجّهها إلينا في هذا المجال، فلماذا كان أمير المؤمنين ملتزمًا بألا يترك صلاة ألف ركعة، حتّى أنّه كان يصلّي صلاة النوافل ويتلو القرآن في حركته وفي عمله بالريّ والزراعة وحفر الآبار[1]. وباختصار، إنّنا نحن الذين لم ندرك

(١) نحن نعلم أنّ الصلوات المستحبة ليس فيها الكثير من شروط الصلاة الواجبة، فلا يُشترط فيها استقبال القبلة، ولا الاستقرار والركوع والسجود على الأرض، والكثير من الأمور الأخرى، من هنا يمكن للإنسان أن يصلي صلاة النافلة في كلّ احواله، ولعل الكثير من صلوات أمير المؤمنين التي تبلغ ألف ركعة، كانت على هذه الصورة، وأنا نفسي رأيت الكثير من العلماء والأعاظم يصلّون هذا النوع من الصلاة، وقد كانت هذه القضيّة أكثر تداولًا في الماضي وذلك لأنّه لم تكن تلك الوسائل الموجودة اليوم في النقل وكان الناس يقضون وقتًا طويلًا في الانتقال من مكان إلى مكان، وقد كان الكثير من الأعاظم والعلماء يستغلون هذه الفرصة ويصلّون النافلة، رحمة اللّه على أستاذنا المرحوم العلاّمة الطباطبائي الذي كنا نصحبه أحيانًا من مكانه إلى محل الدرس، وكنا نلاحظ أنّه كان ينشغل بصلاة النافلة أثناء الطريق، أو المرحوم الشيخ غلام رضا فقيه الخراساني، رضوان اللّه عليه، الذي كان من علماء مدينتنا يزد، حيث كان في أكثر أوقاته حين انتقاله من منزله إلى المسجد أو أي مكان آخر، يصلّي صلاة النافلة.

قيمة الصلاة وأهميّتها، لأنّه لا يوجد ما هو أهم وأفضل من الصلاة من بين جميع الأعمال التي تقرّب إلى اللّه أكثر. مشكلة صلواتنا هي أنّها ليست صلاةً حقيقية، ولو كانت كذلك لكنّا سنرى آثارها وبركاتها، سواء في الحياة الدنيا أو على صعيد الارتقاء والتكامل المعنويّ والروحيّ.

العروج إلى اللامتناهي

لا شك أن الصلاة هي أعظم مصداق من مصاديق ذكر الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾، ولا يخفى على مطّلع الحث الكبير الوارد على لسان المعصومين من أهل بيت النبوة (ع) على الاهتمام بالصلاة وعدم الاستخفاف بها، لكونها هي عمود الدين والركن الأساس في علاقة الإنسان مع ربه، ولكونها هي - كما ورد في المأثور - معراج روح المؤمن، وأحب الأعمال إلى الله، وباب الرحمة الإلهية، وكفارة ذنوب المؤمنين.

ولكن، كيف يمكن لهذا الفعل العبادي أن يحمل في طياته كل تلك المعاني والقيم؟ وكيف يمكن أن تترتب على هذا الفعل المحدود زمنيًا كل تلك الآثار التكوينية العظيمة؟ وهل كل فعل قيام وقراءة وركوع وسجود هو صلاة بالمعنى الوارد في المرويات؟

وفي هذا السياق نقول، إن هناك جملةً من المسائل التي يجب اقترانها بفعل الصلاة كيما تتحقق صلاةً تامةً، وإن هناك مجموعةً من الإشارات التي لا بد من الإلفات إليها في سبيل الإرشاد إلى تحقيق الصلاة التامة، وفي هذا الإطار يأتي هذا الكتاب.

في الكتاب خمسة فصول، يتدرّج من خلالها المؤلف في معالجة جملة من أهم متممات الصلاة، من التوجّه وحقيقته، إلى الإخلاص ومحدداته، إلى حضور القلب وتصفية النيّة ودورهما، ويعرّج بعدها إلى أركان الصلاة وأذكارها، ثم آثارها في الدنيا والآخرة، ذلك كله في سبيل تقديم وجبة إرشادية حول الصلاة كإحدى أهم مصاديق العبادة، تساهم في ترسيخ فهم عميق لها على أساس كونها مِرقاةَ عروج الإنسان المحدود إلى خالقه المطلق اللامتناهي.

ISBN 978-614-440-090-6

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah